خَلق الإبل وتكيفها مع الصحراء

تأقلمت الحيوانات الصحراوية، ومنها الإبل، على العيش في الصحراء بعدة طرق. وقد اعتمدت هذه الطرق على نوعية الحيوانات وحجمها وتركيب أجسامها. والإبل من أعظم الحيوانات خَلْقاً، وأكثرها مهابة، وأجلها عند العربي مكانة وقدراً، كانت له نعم الرفيق في الطريق، ونعم العتاد زمن الخوف والضيق. لم يتحمل الصحراء بزمهريرها وسمومها مثلها، ولا صبر على المكاره والمشاق غيرها، فالبعير هو الحيوان الذي أحبه العرب وخبروه وعرفوا خَلْقه وأخلاقه كما يعرفون أبناءهم. وسنلقي نظرة عامة على أعضاء البعير المختلفة التي جعلته من أنجح الحيوانات تأقلماً مع طبيعة الصحراء.

يذكر علماء الحيوان في تصنيفاتهم العلمية أن الإبل تتبع قبيلة الحبليات (كورداتا) Chordata وتحت قبيلة الفقاريات (فيرتبراتا) Vertebrata، وهي إحدى رتب طائفة الحيوانات الثديية (الحيوانات اللبونة/ ماماليا) Mammalia. وتتميز عن غيرها من الحيوانات الأخرى بأنها تلد وترضع صغارها، كما يغطي أجسامها وبر. وهذه الرتبة هي رتبة مشقوقات الحافر (الحافريات/ ذوات الحافر/ آرتيوداكتيلا Artiodactyla) ويندرج البعير تحت رتبة التايلوبودا Tylopoda، التي تتميز بأن الإصبعين الثالث والرابع في كل من اليد والرجل منها متساويان. وتكون الأصابع الأخرى غائبة كما في البعير أو أثرية في أنواع أخرى. وعائلة الإبل (كاميلينا) Camelinae يتبعها جنسان هما جنس (اللاما Llama) وجنس الإبل (كاميلوس Camelus). وسنفصّل الحديث هنا عن أعضاء وجسم البعير حسب وصف العلماء، وكما وردت في التراث العربي.

الأجزاء الخارجية للبعير

العينان. يحمي عين البعير قضيبٌ هيكلي خلفي، ورموش غليظة طويلة؛ ولهذا فعين البعير لها القدرة على الرؤية الجيدة في النهار والليل. وتستخدم عين البعير التركيب المشيمي أثناء الليل لتقوية الرؤية، أما في النهار، حين يكون الضوء شديداً، فإن الحواف الخارجية لقزحية العين تعمل حاجزا لوقاية بؤبؤ العين، وبذلك تقل كمية الضوء التي تقترب من الشبكية.

ويمتاز جفن البعير بأهداب طويلة تتشابك مكونةً ما يشبه شبكة تحمي العين وتعطيها القدرة على الرؤية، وتكون شبه مقفلة خلال هبوب العواصف الرملية. ولعيني البعير مجريان دمعيان فقط للغدد الدمعية، وهما واسعان بدرجة تجعل من الصعب إغلاقهما أو سدهما بواسطة الرمال. والبعير بهذه الميزة يختلف عن باقي الحيوانات الثديية الأخرى. وعندما يتعرض البعير للجفاف أو العواصف الرملية، فإن إفرازه الدمعي يكون

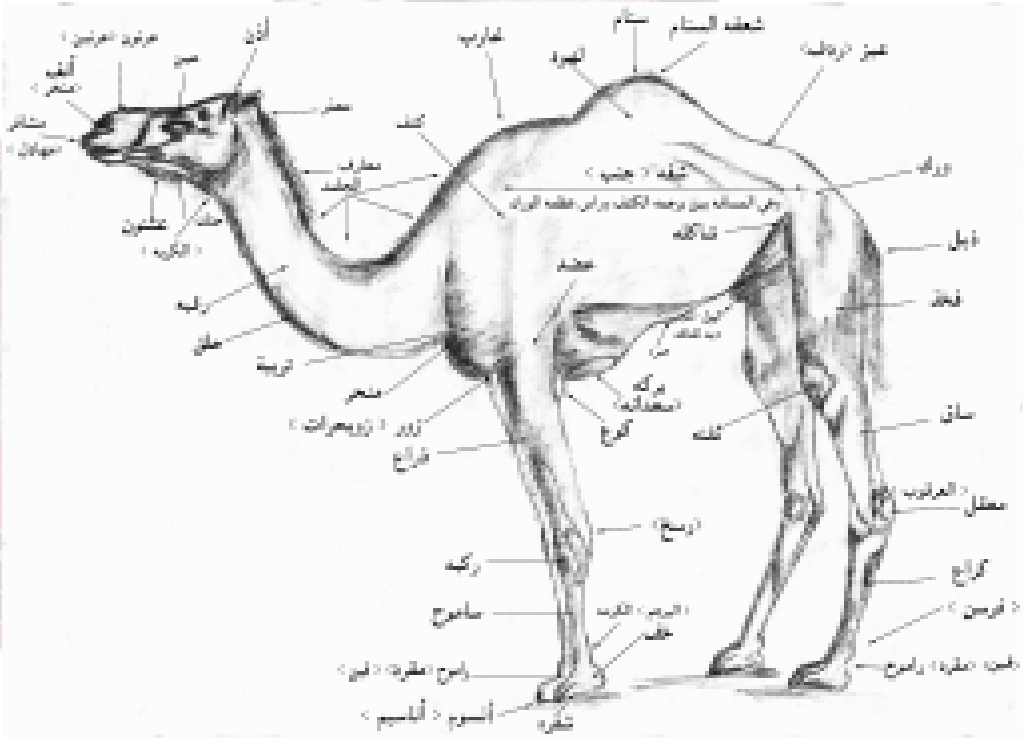

الأجزاء الخارجية للبعير

الأجزاء الخارجية الأمامية للبعير

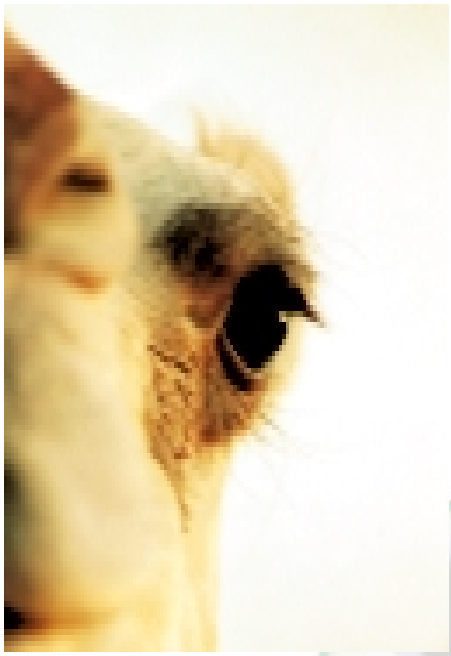

جفن البعير وأهدابه

مستمرا، وبكمية كبيرة. وهذا الإفراز يحفظ الأنسجة الطلائية لملتحمة الغشاء المخاطي المبطن للعين، والأنسجة الطلائية للقرنية من الجفاف. ولا يجري الدمع من عين البعير على هيئة نقط دمعية، وإنما تسح دموعه مبللة الخد أسفل منها، وهناك من يقول بعكس ذلك.

الدمع يسيل من عين البعير

وقد يصيب الإبل العشا، وهو ألا تبصر بالليل ومن أمثال العرب السائرة «هو يخبط خبط عشواء»، والعشواء هي الناقة التي لا تبصر بالليل فهي تطأ وتدوس كل ما مرت به؛ قال زهير بن أبي سلمى:

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصب
تمته، ومن تخطئ يُعمّر فيهرم

الأنف. أنف البعير مكون من عدد من التجويفات مهمتها ترطيب الهواء الجاف الداخل إلى الرئتين. وهنالك

زوجان من الأكيـاس يفتحان في الجزء الأمامي للفجوة الأنفـية، وهما مبطّنان بأغشية مخاطية، يبـدو أنها تفرز بعض السوائل. ويمكن ضغط هذين الكيسين، بواسطة الـعضلات المجاورة، لإحداث تفريغ يؤدي إلى شفط الإفرازات من القناة الدمعية الأنفية لإعادة امتصاص الماء منها واستـخدامه من جـديد. كمـا أن ثمة لوالـب، تبرد هواء الـزفير الخارج مـن الرئتين مشبعاً ببخار الماء، مما يؤدي إلى تكثيف بعضه في الأنف فيستفاد منه مرة أخرى. كما أن الغدد الأنفية الجانبية تنشط في إفراز المخاط لكثرة خلاياها، ولوجود الغدد الصفائحية المخاطية فيها.

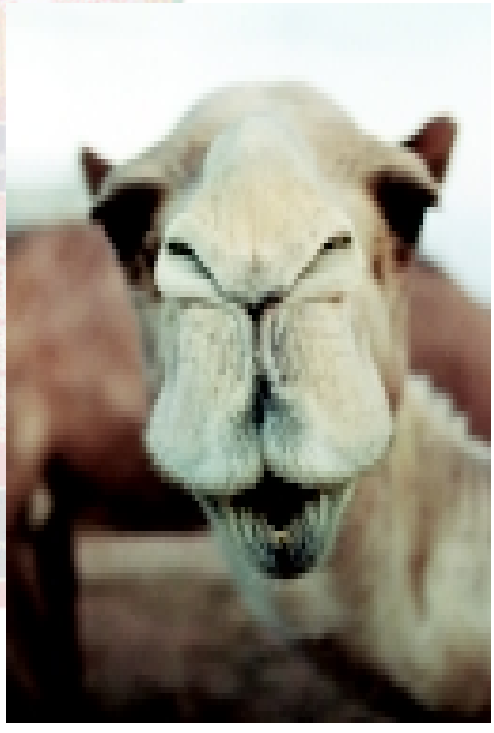

الأنف

وتسـبب حـركة الخلايـا المهـدبة، الموجودة في الأغشية المخاطية للأكياس الأنفية، تحريك الإفرازات المخاطـية في اتجاه المنخر لترطيب الهواء الجاف الداخل للتنفس. ويعتقد أن الغدد الأنفية الجانبية تقوم بإفراز أملاح مركزة. ويوجد زوج من الغدد الـطويلة يفرز المخاط أيـضاً. ويؤدي هذا المخاط، من دون شك، دوراً في ترطـيب الهواء الـصحراوي الجاف الداخل للرئتين. وبالإضافة إلى ذلك فإن الجزء الخارجي للأنف يمتاز بوجود شق طولي، مبطن من الداخل بـشعر قصير ناعم، شأنه في ذلك شأن جانبي فتحتي الأنف، وهذا الشق يتولى مهمة تنظيف الهواء الداخل من الغبـار. هذا وللبعير القدرة عـلى شم رائحة الإبل الأخـرى من مسافات بعيدة.

الرقبة. يبلغ طول رقبة البعيرمن متر ونصف إلى مترين، وبهذه الرقبة الطويلة يستطيع البعير الوصول إلى أوراق الشجر التي ترتفع ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريباً عن سطح الأرض، وهو أمر يكاد يكون مستحـيلاً في الحيوانات الأخرى، ما عدا الزرافة والفيل. ويساعد البعير على ذلك التركيب العصبي الخاص بالرقبة،

الرقبة

وعضلات الكتف وشرايين الدماغ. كما يعطي هذا الارتفاع البعير ميزة الرؤية لمسافات بعيدة، وكذلك القدرة على خفض رأسه إلى مستوى الأرض، ليشرب أو يرعى، دون أن يتغير ضغط الدم في الدماغ؛ ولذا يستطيع البعير أن يرفع رأسه ويخفضه عدة مرات في وقت قصير دون تغير مفاجئ في ضغط الدم.

السنام. تعد قدرة البعير على جمع مخزون من الطاقة على هيئة دهون في السنام، ليستخدمها عند الحاجة، سمة من سمات تكيفه مع طبيعة الصحراء. فالسنام هو مستودع طاقة البعير، وهو الجزء الذي يختزن فيه الشحم، الذي يعد طاقة مؤجلة يدخرها البعير في وقت راحته وتمتعه بالمرعى الجيد في فصل الربيع ليستفيد منها وقت الحاجة إليها. وتأتي هذه الحاجة عند السني أو الجري أو بذل الجهد في نقل الأحمال وغيرها. وقد يستنفدها وقت الجوع لانعدام المرعى الناتج عن الإهمال أو المَحْل (الدهر). وبسنام البعير يقاس سمنه، فيقال «بعير عليه طول يده»، إذا كان في غاية السمن، و«بعير عليه كبر رأسه»، و«بعير عليه كبر خشمه»، و«بعير لين سنامه»، و«بعير عاري السنام». وسنام البعير هو خلايا أو تجويفات أو حجيرات تراكمية هرمية، تمتلئ بالدهن. وعند سمن البعير تتراكم الطبقة السفلى وترتفع، ثم التي تليها حتى تبلغ الذروة التي لا مزيد عليها. وتتقلّص هذه التجويفات عند الهزال وتنكمش، وتبقى أوعية فارغة متراصة رخوة. وينقسم السنام إلى قسمين طوليين، يسمى كل قسم منهما شطاً، والشطان متماثلان من حيث الحجم والتكوين والنمو والضعف. وعندما يفقد البعير العربي الدهون من سنامه،

السنام

أثناء الظروف غير الملائمة، فإن السنام يتقلص فقط في حجمه دون ارتخاء أو ترهل. وقد يرتخي إلى أحد الجانبين في بعض الحالات، وهنا تقول البادية «انكسر سنامه». وربما انكسر سنامها عند قيامها من مبركها إذا كانت شديدة السمنة؛ أو إذا ضربها الفحل وهي سمينة، فبرك عليها ولم يُقْعِ (ينسحل)؛ أو إذا تمرغت وهي سمينة جداً.

الأطراف. لا تشبه الأرجل والأيدي في الإبل الحافريات الأخرى. ومع أنّ البعير ينتمي إلى رتبة (مزدوجة الأصابع) التي تنتمي إليها المجترات الأخرى ذات الظلف المشقوق، إلاّ أنّ خفه ليس ظلفا. ويبلغ خف اليد الأمامية حوالي ١٨سم طولا، و١٩سم عرضا، وقد يختلف هذا الحجم من سلالة لأخرى. وسبب ذلك أن نصف البعير الأمامي أثقل وزنا من نصفه الخلفي، لوجود الرقبة والرأس فيه، لذلك يدعمه خفان أكبر من الخفين اللذين يدعمان النصف الخلفي الأقل وزنا. وتكوين خف البعير بهذا الوضع يساعده على ألا يغوص في الرمال.

ويقف البعير على باطن الخف، أي أنه باطني الوقفة، وليس حافري الوقفة كما في الحيوانات الأخرى. ويساعد البعير على الوقوف وجود الوسائد والتراكيب المرنة تحت السلاميات المتباعدة، التي هيّأت الخف للوقوف والسير على الأرض اللينة.

الأطراف

الخف والأنسام

باطن الخف

ويكون باطن الخف مضغوطاً إلى أسفل على الأرض خلال وقوف البعير منفرج الساقين. وباطن خف البعير غليظ ومرن يكفل له سهولة الوقوف على الرمال، وإلى حد كبير، على الحصى الصغيرة. ويتجنب البعير الوقوف أو السير على الطرق الوعرة ذات الحجارة الكبيرة، مفضلاً السير على الأرض الرملية، ومرد ذلك إلى أن الأرض الحجرية الوعرة ربما تسبب تقشر باطن الخف، ونزف الدم منها لو سار البعير عليها مسافة طويلة، مما يسبب له الوجى والحفاء. وعند الاضطرار إلى السير في مثل هذه المناطق فإن الخف يُكسى بنوع معين من الجلود، يسمى الرقع، لحمايتها. وكذلك يجد البعير صعوبة في السير على الأراضي الطينية أو الموحلة.

والتأقلم ليس فقط في هيئة أخفاف البعير، ولكن أيضاً في طول أرجله. فقد اختزلت عظام الساق الخارجية المعروفة بالشظية، والتحمت عظام الكعبرة مع عظم الزند التحاما محوريا. كما التحمت العظام المشطية والعظام الوظيفية التحاما جزئيا وكونت عظماً بشعبتين شبيهاً بالحرف Y.

القوائم الأمامية

الأجزاء الخارجية الخلفية للبعير

والبعير، عادة، لا يجري في الظروف الطبيعية، حتى لا يفقد ماء جسمه، لارتفاع درجة حرارة جو الصحراء، ولعدم وجود أعداء طبيعيين له يدفعونه إلى العدو، ولكنه يجري أحياناً عندما يُطارد.

الذيل. للبعير ذنب (ذيل) يسمى العسيب وهو قصير عريض نوعاً ما، عليه وبر على جانبيه يسمى الهلب، وينتهي بخصلة من الوبر الطويل، ويستعمله البعير في طرد الذباب عن مؤخرته وفي تفريق الدمن الخارجة منه، كما يساعده على نثر بوله ونشره على مساحة واسعة لتشم الإناث رائحة البول وخصوصاً وقت الهداد (موسم التلقيح).

الجلد والوبر. يكون لمعظم الإبل في فصل الشتاء شعر أو وبر كثيف وطويل، نوعا ما. ويزن في الإناث أكثر من كيلوجرامين، ويزيد في الذكور عن أربعة كيلوجرامات. أما في فصل الربيع، فالوبر قد يتساقط في الإبل الصحراوية وقد يلقط. ويختلف شكل الوبر من موضع إلى آخر في جسم

الجلد والوبر

البعير، فعلى السطح الجانبي والقوائم يظهر الوبر مستقيماً بصورة عامة، ويتراوح طوله من ١٥ إلى ٢٠ ملم في المناطق الباردة. أما في المناطق الدافئة شتاء، فإن وبر الإبل فيها يبدو قصيرا ولا يتساقط. ويمكن تمييز شكلين من أشكال الوبر؛ الطويل الذي ينمو منفردا، والقصير الصوفي وينمو في مجموعات، تتكون كل مجموعة من حوالي عشر وبرات، وترتبط كل مجموعة منها بعضلة ناصبة داعمة بجانب بصيلة كل وبرة.

وقد استخدم الإنسان وبر البعير في صناعات عديدة منها بيت الشعر والمحجر الذي يقسّم بيت الشعر إلى ربعة للرجال ورفة للنساء، كما تصنع منه أيضا المفارش والعدول والمزاود والمشالح والعباءات والسياح.

أما جلد البعير فتنتشر فيه الغدد العرقية، فيما عدا الشفة العليا (المشفر الأعلى) والمناخر الخارجية والمنطقة المحيطة بالمخرج. وتقع الغدد العرقية في عمق الجلد، وهذا يفسر السبب في عدم اكتشافها بواسطة الباحثين الأوائل في مجال كيمياء الأنسجة حين درسوا جلد البعير. وقد يصل عدد الغدد العرقية إلى حوالي مائتي غدة في كل سنتيمتر مربع، وهو عدد مماثل تقريباً لما هو موجود في جلد الإنسان. كما تحمى ركُب البعير بوسائد قرنية صلبة (ثفن).

الأجزاء الداخلية

الجهاز الهضمي. البعير من الحيوانات آكلة الأعشاب والحشائش، لذلك فهو من بين الحيوانات المجترة. ويتلاءم تركيب الفم والأسنان والكرش في البعير مع وظيفة كل منها في التغذي بالأعشاب. فالفم عند البعير كبير ومزود بشفتين غليظتين، والشفة العليا مشقوقة. ويمتاز الفك السفلي

في البعير بضيقه، كما يتميز الجزء الأمامي من الفك العلوي بوسادة لحمية سميكة. ويحتوي فم البعير على ٣٤ سناً موزعة على الفكين بالترتيب الآتي:

	الفك العلوي		الفك السفلي
قواطع	٢	+	٦
أنياب	٢	+	٢
طواحن	٦	+	٤
أضراس	٦	+	٦
المجموع	١٦	+	١٨ = ٣٤

ويتضح من هذا التوزيع أن للبعير قاطعين علويين فقط. ويلائم ذلك التركيب وظيفة تجميع الحشائش والأعشاب وقضمها وتقطيعها، إذ يحل محل القواطع العليا المفقودة وسادة لحمية سميكة. والأنياب مسطحة جانبيا، وموزعة على جانبي كل فك. وهي في الجمال أكبر حجما منها في النوق، وتستخدمها الجمال أثناء عراكها.

جمجمة بعير توضح توزيع الأسنان على الفكين

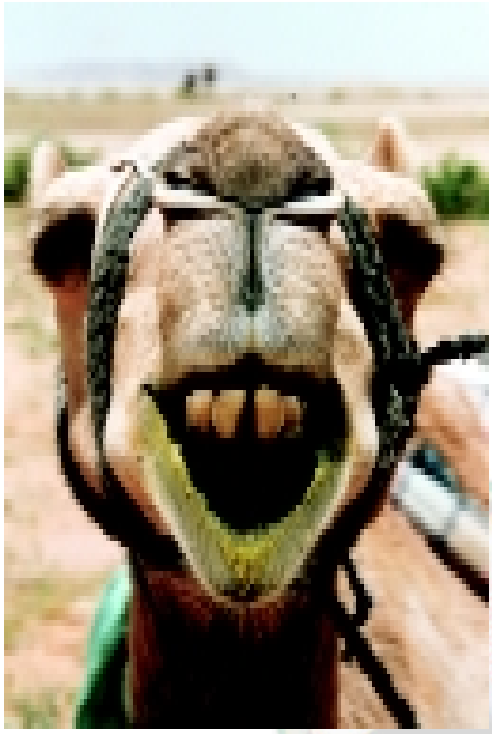

الفم والأسنان

وتستمر أسنان البعير، من قواطع وأنياب، في الفك السفلي في النمو طوال حياة البعير. ولهذا فإن أكل البعير لمواد صلبة، نباتية أو غيرها، ضروري لتكسر أجزاء من هذه الأسنان للمحافظة على حجمها المناسب، وحتى لا تستطيل استطالة غير مرغوبة.

ويمتاز البعير كغيره من بقية الحيوانات المجترة بتركيب مناسب لجهازه الهضمي، خاصة تركيب الكرش. ويتكون جهاز البعير الهضمي من أربعة تجاويف، هي الكرش والشبكة وذات التلافيف والمنفحة.

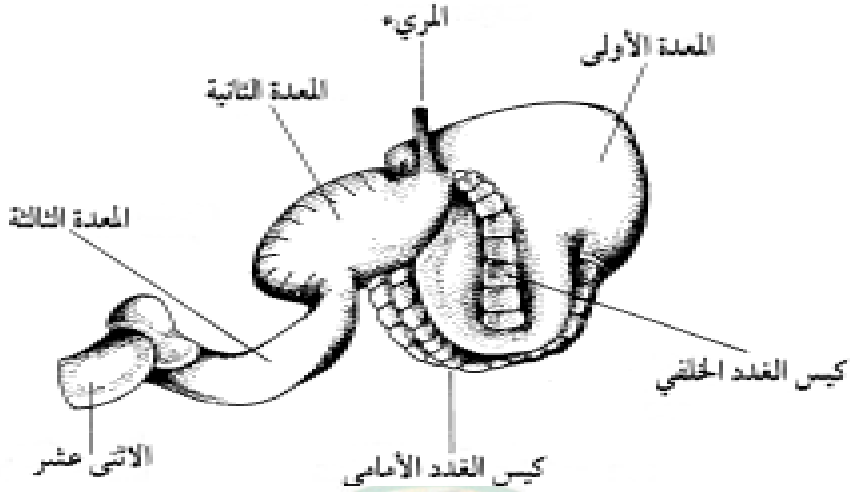

الجهاز الهضمي للإبل

وتبدأ عملية الهضم بمضغ البعير الطعام بصورة غير جيدة في الفم؛ ثم إمراره إلى الكرش، الذي يتم فيه تخمير الطعام فقط؛ ثم إلى الشبكة التي يتم فيها تجزئة الطعام إلى كتل صغيرة حتى تعاد مرة أخرى للفم لمضغها جيداً وخلطها باللعاب، ويتم ذلك في فترة راحة الحيوان. ثم يُعاد الطعام، بعد مضغه جيداً، بمساعدة اللعاب إلى ذات التلافيف. ومن ثم إلى المنفحة التي تقوم بإفراز عصارات هضمية تؤدي إلى هضم الطعام بصورة نهائية. ومن هناك يمر في الأمعاء الدقيقة، وهي قناة طويلة جداً يتم فيها امتصاص الغذاء المهضوم للاستفادة منه، وتسمى هذه العملية الاجترار، ويشترك مع البعير في هذا بعض الحيوانات المجترة من آكلات العشب.

الجهاز العصبي. يرى العلماء أن مخ البعير أطول من مخ الحيوانات المستأنسة الأخرى (١٥٠مم) ولكنه أضيق من مخ المجترات بصورة عامة. وهو شبيه بمخ الحصان من ناحية الشكل العام، ويصل وزنه إلى حوالي ٤٥٠ جراماً. ويمتد الحبل الشوكي عبر فقرات الرقبة والفقرات الظهرية حتى ينتهي عند طرف الذيل. وتنتشر من الحبل الشوكي الألياف العصبية إلى سائر الجسم. وتمتاز رقبة البعير بترتيب عصبي خاص بها وبعضلات الكتف (Wilson 1984).

وللبعير، كما لغيره من الحيوانات المجترة، ثلاثة أنواع من الأعصاب:

أ) العصب العادي الذي يمتد في كافة أنحاء الجسم، وهذا العصب وإن كان يتصف

بالقوة والمتانة، إلا أنه يكاد يوجد في كل الحيوانات.

ب) العصب الأصفر أو (الْجِلْمَدُ، ويجمع على جلامد)، وهذا النوع من العصب له ميزة خاصة فهو قابل للتمدد والانكماش. وتشد رقبة البعير عصبتان غليظتان منه، يلتحم طرفاهما في أعلى الرقبة والرأس، ويلتحم طرفاهما الآخران في العمود الفقري من بين لوحي الكتفين. هاتان العصبتان لونهما أبيض مائل للصفرة، وهما اللتان تتحكمان في مد وإرخاء رقبة البعير. ولهما تكوينهما الخاص، إذ ينفصلان نوعاً ما عن نسيج اللحم والعظم، إلا ما يربطهما في الحياة. ويستفيد البدوي في حياته من هذا العصب (الجلامد) في وسر الأشدة القوية، بسبب متانته وجماله ونظافته.

جـ) العصبة الرئيسية وتسمى الْعَقَبَه، وهي وإن لم تكن غليظة إلا بمقدار ٣ مم، إلا أنها قوية جداً. وهي أقوى ما في البعير من الأعصاب على الإطلاق. وتمتد من رقبة البعير، مما يلي الرأس، حتى ذنبه، متوسطة أعصاب الظهر. وهي عصبة طويلة مستقلة بالغة الأهمية في قوة البعير وضعفه عند القيام بحمله. ويعرف البدو مواضع التحامها في رقبة البعير وعند ذنبه، فيقطعون ملاحمها وينسلونها من ظهر البعير، كالخيط المفتول، قطعة واحدة طولها من ٣-٤ أمتار، حسب حجم البعير طولاً وقصراً. ويستفاد منها في عملية الوسر فيما انشرخ أو انشطر من خشب البندقية وغيرها.

القلب والكبد. قلب البعير كبير الحجم، ومقسم إلى أربع حجرات هي: البطين الأيمن، والبطين الأيسر، والأذين الأيمن، والأذين الأيسر.

وذكر الصانع في كتابه الإبل العربية أن الجزء الأيسر من القلب، سميك غليظ الجدران، وأكبر حجما من الجزء الأيمن لأنه يضخ الدم إلى باقي أجزاء الجسم. أما الجزء الأيمن من القلب فيجمع الدم القادم إلى القلب من الجسم. ولون الدم في الإبل يختلف عن لونه في المجترات الأخرى، إذ يتميّز في الإبل باللون الأحمر الفاتح (الوردي). وخلاياه الحمراء لا تحتوي على أنوية بخلاف الثدييات الأخرى (١٩٨٤: ١١٤-١١٦).

ولا توجد في كبد البعير حويصلة صفراوية (مرارة) مثل بقية الحيوانات المجترة الأخرى. وبسبب عدم وجودها، فإن نسبة كبيرة من المواد النتروجينية تتحول إلى المعدة ليعيد البعير استخدامها في تكوين مواد بروتينية أخرى. وهذه الظاهرة لا نظير لها في الإنسان أو الحيوانات الثديية الأخرى. فهي جميعها تدفع بالمخلفات البروتينية، التي

تتكـون في الكبد، إلى الـكليتين الـلتين تطردانها بدورهما خارج الجسم.

العمـود الفقري والأضـلاع. يصف الصانع العمود الفقري قائلاً:

> يتكون من سلسلة عظمية مرنة فردية تتوسـط هيكل جـسم البعـير من أعلى، وتتصل مـن الأمام بالرأس عن طريق الرقبة، وتنتهي عند طرف الذيل. وهذه السلسلة العظمية هي فقـرات تحيط بالـنخاع الشـوكي، يختلف عددها من حـيوان لآخر. وهي في البعير على النحو التالي: ٧ فقرات عظمية في منـطقة العنق (الرقبة)، ١٢ فقرة عظمية في منطقة الظهر، ٧ فقرات عظمية في منطقة القَطَن، ٤ فقرات عظمية في منطقة العجز، ١٥-١٨ فـقرة في منطقة الذيل، وهي المناطق الخـمس التي يمكن تمـييزها في العـمود الفقري (١٩٨٤: ١١٧-١١٨).

ويبلغ عدد أضلاع البعير ٢٤ ضلعاً، في كل جانب منه ١٢ ضلـعاً. وترتبط من أعلاها في العمود الفقري ومن أسفلها بعظم الزور الغضروفي. ويتراوح طول هذه الأضلاع من متر إلى متر ونصف، وربما زاد الطول عن ذلك حسب حجم البعير. وعرض كل ضلع يتراوح ما بين ٥-٨ سم. وتنحني هذه الأضلاع انحناءً متناسقاً بحيث تقوم بحماية القلب والرئة والكبد. وكلما ارتفع انحناؤها مع طول الأضلاع، كان ذلك أفضل لقوة التحمل واتساع الرئـة في التنفس أثناء الجـري.

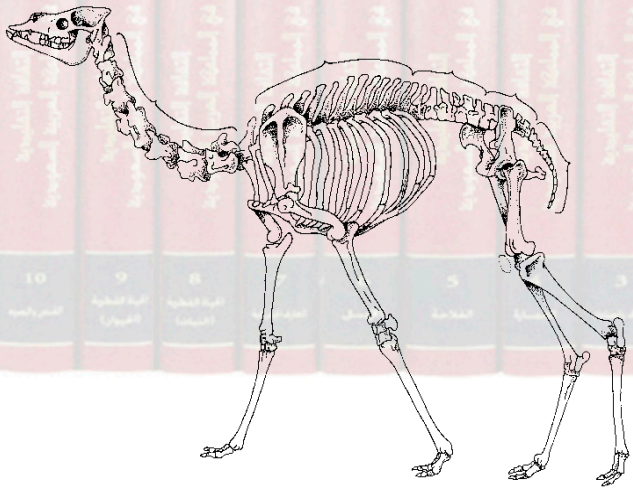

العمود الفقري والأضلاع

ويسمى ارتفاع الأضلاع بالقبب (قبا الضلوع أو الأضلاع).

الأوعية الدموية. تمتاز شرايين الدم الغليظة في كل من قوائم البعير ورقبته، بوجود صمامات مرتبة بعضها فوق بعض على طول محور الشريان. كما توجد هذه الصمامات في الأوردة الودجية والفخذية. ومهمة هذه الصمامات أن تمنع عودة الدم إلى الأوردة الكبيرة عندما يحدث ارتفاع مفاجئ للضغط في الوريد الرئيسي. فعندما يخفض البعير رأسه للرعي، فإن الصمامات الموجودة في الأوردة الودجية تمنع فيضان الدم إلى الدماغ.

يختلف البعير عن المجترات الأخرى، كالماعز والضأن، في أن له عظما في الحجاب الحاجز يقيه تأثير الضغط أثناء تدفق الدم، عندما يكون البعير في حالة نشطة. كما أنه يوزع القوى على العضلات التي تسحب الحجاب الحاجز فوق مساحة سطحية كبيرة.

وصف جسم البعير في التراث

في اللغة. ورد في التراث العربي وصف مفصل لبعض أجزاء جسم البعير. ونورد فيما يلي بعض ما قالته العرب في هذا الخصوص، دون ترتيب، لأنه قد يرد في بيت واحد من الشعر، أو أحد الأمثال وغيرها، ذكر أكثر من جزء من أجزاء البعير؛ فقد أورد هادي شكر في كتابه الحيوان في الأدب العربي طائفة من الأسماء التي تطلق على جسم البعير وأجزائه، اعتماداً على ما ورد في معاجم اللغة. فذكر منها ما يلي:

الفراسن (الأراضي): واحدها فرسن وهو طرف الخف. والبرك: ما ولي الأرض من جلد صدر البعير إذا برك. والجران: مقدم العنق، والثفنات (مفردها ثفنة) وهي طبقة خشنة فوق الجلد مما أصاب الأرض من أعضائه وتسمى الكركرة، وهي ثفنة البعير التي تلتصق بالأرض من صدره إذا برك. جزارة البعير: رأسه وفراسنه، لأن الجزار يأخذها كراءً مقابل عمله. وجسم البعير: صدره. والمجمرات: الأخفاف الشداد. والَحِرْدُ وجمعه حُرُوْد: مبعر البعير والناقة، وقطعة من السنام، وأحرادُ الإبل أمَعْاؤُها. والسنام: أعلى الظهر. والسلامى: عظام الفِرسن. والسنور: فقارة العنق. والشرافية، والشرفاء من النوق هي الضخمة الأذنين.

والمشفر من البعير: بمنزلة الشفة من الإنسان، والشفير: حد مشفر البعير. والشناخيب: فقرات البعير. والأظل من البعير والناقة: ما تحت المنسم. والغارب: الكاهل، والغاربان: ظهر البعير من

مقدمه ومؤخره. والغربان من البعير: حرفا الوركين اللذان فوق الذنب. والقطنة: مثل الرمانة تكون على كرش البعير واللحمة بين وركيه. وقنفذ البعير: ذفراه، والذفرى: العظم الذي خلف الأذن. والملاطان: كتفا البعير، وقيل: العضدان، وجانبا السنام. والمنسم: طرف الخف (١٤٠٥: صفحات متفرقة).

وذكر أبو سويلم (١٩٨٣) من أعضاء الإبل ما يلي:

البخص هو اللحم في الخف، والحاذان من الناقة ما استقبلك من الفخذين، وأحدهما حاذ، والحولاء من الناقة كالمشيمة من المرأة، والأخدعان: عرقان في عرض العنق، والخِلْف: حلمة ضرع الناقة، والرفغ: أصول الفخذين من الباطن، والسبلة: المنحر من البعير، وهي المشافر عند البادية.

أما عثنون البعير فهو ما نبت تحت لحييه من الشعر، والفراسن هي السلامى من رجل البعير، بعدها الرسغ ثم الوظيف، وهو بمنزلة الحافر من الفرس.

والمقلمة وعاء قضيب الجمل، ومثلها قنب الجمل، وهو وعاء ثيله (قضيبه). وكتد البعير: أصل العنق إلى أسفل الكتفين، والكتر: أصل السنام، والكعس: عظام السلامى، والمنسم: طرف الخف، والنكفتان: العظمان الناتئان عند شحمة الأذنين، والوبر: صوف الإبل، والوظيف: مستدق الذراع.

ومما قالته العرب في أمثالها «أتمك من سنام» والتموك: الارتفاع والسمن، والتامك من الإبل عظيم السنام. ويقولون: أتمكها الكلأ: أي أسمنها يعني الناقة أو الإبل. وقيل أيضا «أفواهها مجاسها»، وأصل المثل أن الإبل إذا أحسنت الأكل اكتفى الناظر بذلك، فالبادية تحب الناقة الأكول الكثيرة الرعي، وتسمى الرّعايه.

وأورد شكر أيضا بعض الأوصاف المستحسنة في الإبل، ومن ذلك: دقة الأذن وتحديد أطرافها، وكبر الرأس، واستطالة الوجه، وعظم الوجنتين، وقنو الأنف، وطول العنق، ودقته، ودقة المذبح، وطول الظهر، وعظم السنام، وطول الذنب وكثرة شعره. ويستحب أيضاً غلظ الأطراف، وقلة لحم القوائم، وأن تكون كثيرة اللحم لا رهلة ولا مسترخية، ملساء الجلد، تامة الخلق، قوية صلبة، خفيفة سريعة السير.

أما الحتي فقد أورد في كتابه الإبل العربية الأصيلة بعض ما يستحسنه العرب من أجزاء جسوم الإبل وما ورد عنها في أشعارهم. فمن ذلك: وصف رأس الناقة

بالصلابة والدقة والضخامة. والجمجمة شبهت صلابتها بصلابة سندان الحداد، أما ملتقى عظامها فشبهت بأسنان المبرد. والأذنان وصفتا بأنهما محددتان تحديد الآلة وهما صادقتا الاستماع والتيقظ في حال السير ليلاً. والعينان واسعتان، والحدقتان حمراون، مملوءتان بالبريق واللمعان والحدة والصفاء، والخدان يستحب فيهما الأسالة والملاسة. ويستحب في الأنف القُنُوّ. ويستحسن في العثنون، وهو الشعيرات عند مذبح البعير تحت لحييه، أن يكون كثيفاً، وفي العنق أن تكون مستقيمة متسعة من ناحية الكتفين والصدر، إضافة لطولها. ويستحب في الجران، وهو مقدم العنق من مذبح البعير تحت لحييه، أن يكون مضموماً ومقروناً إلى خرز العنق المنضد بعضه على بعض. والمرفق من البعير هو أعلى الذراع وأسفل العضد، ويستحب في المرفقين الانفتال للخارج، وأن يكونا أيضاً بعيدْين عن جانبي البعير. والسنام هو أعلى ظهر البعير، والتامك: السنام المكتنز ويسمى رأس السنام العرعرة، ويستحب في السنام الارتفاع والضخامة والسمنة والتقوس. والذنب يتكون من الفقرات العصعصية والأوتار والعضلات المختصة بها ويسمى كذلك العسيب، ويستحب فيه عظمه وغزارة هِلبه. ويستحب في العظام أن تكون متلاحمة متماسكة. أما السقائف وهي أضلاع البعير، واحدتها سقيفة، فيفضل أن تكون متسعة صلبة قابة تملأ فراغ الخاصرتين. ويستحب في البطن أن يكون مستديراً متناسقاً مع الجسد خالياً من الأورام، ويستحب في النوق سعة بطونها، ومنها يستدل على أن الناقة ولود. ويمتد الفخذ من أسفل الحوض، أي عند نهاية التحدب إلى العرقوب الذي يصله بالساق، ويستحب فيه أن يكون عريضاً، طويلاً، سميناً، قوياً. وتمتد القوائم (المرادى) من العرقوب حتى الرسغ، وتتألف من عظم الساق والعضلات التي تلفها. ويستحب فيها أن تكون متينة، طويلة، مستقيمة، غير منحرفة، مع الضخامة والخلو من الأورام. ويسمى الأثر الخشن الذي يظهر على جلد البعير فيما أصاب الأرض من أعضائه عندما يبرك الثفنات. والخف من الإبل كالحافر من الخيل. والملطاس هو خف البعير الشديد الوطء. وخف ملكم: صلب شديد، من اللكم. والفرسن: طرف خف البعير، والبخصة: لحم أسفل خف البعير، والمنسم: طرف الخف. ويستحب في الخف أن يكون قوياً، وصلباً شديد الوطء حتى يقوى على صك الأرض. ويستحسن في جلد الجمل أن يكون رقيقاً أملس، مصقولاً، صافي اللون، واسع الإهاب لا

تغضن فيه. وهذا لسلالة الخواره، أما غيرها فالمرغوب أن يكون جلدها عكس ذلك (١٩٩٠: ٧٠-٧٥).

كذلك ورد في كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي في صفة الإبل ما يلي:

أما ما يستحسن من صفاتها (الإبل) فقد رأيت في بعض المصنفات أن كل ما يستحب في الفرس يستحب في البعير خلا عرض غاربه، وفتل مرفقه، ونكس جاعرته وهي أعلى الورك، واندلاق بطنه وتفرش رجليه، فإن ذلك يستحب في الإبل دون الخيل. ... وقد مدح الشعراء الناقة في أشعارهم بعدة أوصاف مستحسنة منها: دقة الأذن وتحديد أطرافها، وكبر الرأس، واستطالة الوجه وعظم الوجنتين، وقنو الأنف، وطول العنق وغلظه، ودقة المذبح، وطول الظهر، وعظم السنام -وهي الكوماء- وطول ذنبها، وكثرة شعره، وأن تكون غليظة الأطراف، قليلة لحم القوائم، ليست رهلة، ولا مسترخية، وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم، ملساء الجلد، تامة الخلق، قوية، صلبة، خفيفة، سريعة السير (١٩٨٧، ج٢: ٣٢).

ومن الصفات الجسمية للنجيبة أن تكون قصيرة الوبر، رقيقة الجلد، قباء الضلوع، ونابية الأمتان، مرتفعة الجنبين مليئة الثدي، جيدة إدرار اللبن، مرتفعة الزور، سريعة الالتفات والحركة، صبورة على طول المدى والمسافة، كثيرة الجري في الرمال والصوان، قليلة الحفاء، حادة العيون بحمرة وتوقُّد، بحيث تبدو زوايا عينيها كالجمر الأحمر مع سعة العين؛ قال الشاعر الشعبي:

حمرا ومِذْنبْ عينها تقل غلَّه
غلة سبِيْلٍ طار منه الرمادي

ومن صفات النجائب -أيضاً- أن تكون صلبة السنام، وسيعة المردف، صغيرة الأخفاف، صغيرة الأذنين مع انتصابهما كأذني الفرس، طيبة الطباع، طويلة العنق، عريضة مؤخرة الرأس (المعذر)، عريضة الصدر، متسعاً ما بين يديها وزورها مع طول الغارب، مفتولة الذراعين، مبرومة الفخذين، وأن يكون ذيلها طويلاً عريضاً كثير الهلب وطويله، وأن تكون كتوم الرغاء، طويلة البطان والعذار، قابلة للتعليم، وفية لصاحبها. ومن ميزات عتاق الإبل أنها في وقت البرد يلتصق صاحبها بجانبها فتدفئه بجسمها، وهي لا تتمايل أثناء نومه بجانبها كي لا تزعجه. ومن عبارات البدو في وصف الناقة الأصيلة «آذانها مثل الحراب» و«عيونها مثل الخلاصه»، «رقبتها

مثل الجريده»، «عضودها مبرمات»، «زورها وخفها صغير»، «نابية المنكب»، «الصدر جفشر»، «زينة الفخوذ»، «زينة الصلب»، «سنامها مركوز فوق سرها».

في الشعر. ومما ورد في الشعر العربي عن أجزاء جسم البعير قول جعفر بن علبة الحارثي:

إذا كلحت عن نابها مج شدقها
لغاماً كمح البيضة المترقرق

وكلحت: إذا كشرت في عبوس، واللغام: زبد أفواه الإبل، وهو في الجمل بمنزلة البزاق أو اللعاب في الإنسان. والشدق جانب فتحة الفم. وهنا ذكر الشاعر من أجزاء جسم البعير: الناب، وهو من الأسنان، والشدق. وقال أيضاً:

برى لحم دفيه وأدمى أظلَّه اجـ
ـتياب الفيافي سملق بعد سملق

ودفَّا البعير: جانباه، وأظله: باطن منسمه أو هو باطن الإصبع، والسملق: الأرض المستوية الجرداء لا نبات فيها. ويقول الأخطل ذاكراً خدي ناقته وخاصرتها:

لعمري لقد أسريت لا ليل عاجز
بسلهبة الخدين ضاوية القرب

وسلهبة الخدين: طويلتهما، والقرب: الخاصرة. وقال أبو ذؤيب مشيراً إلى حارك البعير:

وعند رحلي جمل نجاب
أحمر في حاركه انصباب

وحارك الجمل: هو أعلى كاهله. وقال أبو الطيب المتنبي:

أنساعها ممغوطة وخفافها
منكوحة وطريقها عذراء

يصف الشاعر ناقته بعظم البطن، لأن السيور التي يشد بها رحلها (الأنساع) ممغوطة أي ممدودة، أما أخفافها فهي مدمية (منكوحة) من سيرها على الحصى (عذراء) لم تسلك من قبل. وقال أيضاً مشيراً لكبد البعير:

لقوك بأكبد الإبل الأبايا
فسقتهم وحد السيف حاد

الأبايا: جمع أبية، والعرب تصف الإبل بغلظ الأكباد. وقال أيضاً مشيراً لظهر الناقة:

وخرق مكان العيس منه مكاننا
من العيس فيه واسط الكور والظهر

والخرق: المتسع من الأرض، والكور: الرحل للناقة. ومعنى قول الشاعر هو: أننا في وسط ظهور الإبل، والإبل في وسط هذه الأرض المتسعة. وقال أيضاً:

وتكرمت ركباتها من مبرك
تقعان فيه وليس مسكاً أذفرا
فأتتك دامية الأظل كأنما
حذيت قوائمها العقيق الأحمرا

يقول الشاعر: أتتك هذه الناقة وقد دميت خفافها من طول السير ووعورة الطريق، حتى كأنها ألبست حذاء من حجارة العقيق الأحمر، ويشير بهذا إلى الدم. وقال أيضاً:

وكان هديراً من فحول تركتها
مهلبة الأذناب خرس الشقاشق

المهلبة الأذناب: هي المقطعة شعر الأذناب، والهلب: شعر الذنب، والشقشقة: هي ما يخرج من فم البعير عند هديره ولا تخرج إلا عند هياجه، وتسمى هدَّارة. ويقول المتنبي أيضاً:

ويُغيرني جذب الزمام لقلبها
فمها إليك كطالب تقبيلاً

يقول الشاعر لمحبوبته: إنَّ مما يحملني على الغيرة، جذبك زمام الناقة إليك فتقلب الناقة فمها باتجاهك كأنها تطلب قبلة. وقال الشاعر أيضاً:

ودسنا بأخفاف المطي ترابها
فلا زلت استسقي بلثم المناسم

المنسم للخف كالسنبك للحافر. ويقول أيضاً:

تحدي الركاب بنا بيضا مشافرها
خضراً فراسنها في الرغل واليَنم

الفرسن: باطن الخف، والمشفر للبعير كالشفة للإنسان، والرغل واليَنم: نبتان. وقال أبو تمام يصف ناقته:

تامكة نهدة مداخلة
ملمومة محزئلة أجدة

والتامك: السنام وهو الحدبة في ظهر البعير، والنهد: المرتفع، والمحزئل: المجتمع والأجد: فقار الظهر. وقال أيضاً:

وملآن من ضغن كواه توقلي
إلى الهمة القَعْسا سناماً وغارباً

والتوقل: الصعود، والقعساء: الثابتة، والغارب من البعير ما بين السنام والعنق. وقال أيضاً:

وكأنني بالشدقمية وسطه
خضر اللهى والوُظْفِ والأخفاف

واللهى: جمع لهاة وهي اللحمة المتدلية في سقف الحلق، والوظف: جمع وظيف وهو مستدق الذراع والساق في الإبل. وقال:

تنأى ملاطاها إذا ما استكرهت
سعدانة كإدارة القرزوم

تنأى: تبعد، وملاطا الناقة: جانبا سنامها، والسعدانة: كركرة البعير وهي رحى زوره، وقد شبهها بطلع السعدانة وهي نبتة طلعها مستدير مثل الزور، والقرزوم: خشبة مدورة يستخدمها صانع الأحذية. وقال:

فلنا أمين خصوصها وشخوصها
ولها وريّ سديفها ولحومها

أخذت محالتها السهوب وأيدها
فالبعد يعذرها ونحن نلومها

والمحالة: فقرة من فقرات ظهر البعير، والسديف: الشحم، والسهوب: الأراضي البعيدة. وقال:

فأنت السنام للفخار وغارب
وصفواك منه منكباه وكاهله

والمنكب: العضد ومجتمع رأس الكتف، والكاهل: مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق.

أما الشاعر علقمة بن عبدة (علقمة الفحل) فوصف ناقته قائلاً:

وناجية أفنى ركيب ضلوعها
على طرق كأنهن سبوب
بها جِيَفُ الحسرى فأما عظامها
فبيض وأما جلدها فصليب

والركيب: ما ركب على الضلوع من شحم، والسبوب: ما تفعله الرياح الحارة بالنهار، والحسرى من الإبل: التي كلَّت وتعبت، والصليب: الصديد.

كما يقول محمد بن المولى:

رميت قراها بين يوم وليلة
بفتلاء لم ينكب لها الزور مرفق

والقرا: الظهر، والفتلاء: الناقة في ذراعيها فتل وهو تباعدها عن الجنبين كأنهما فتلا عنهما. وقال المثقب العبدي (عائذ بن محصن):

تسد بدائم الخطران جثل
خواية فرج مقلات دهين

يعني أن الناقة تملأ ما بين قوائمها بذنب ضاف دائم الحركة، والذنب العريض مستحب. وقال المسيب بن علس:

وإذا أطفت بها أطفت بكلكل
نبض الفرائص مجفر الأضلاع

الفرائص مفردها فريصة، وهي لحمة بين الجنب والكتف أسفل من الإبط أو بين الثدي والكتف ترعد عند الفزع، ومجفر الأضلاع: كبر الجوف (البطن). وقال المخبل السعدي مشيراً إلى قلب ناقته:

وإذا رفعت السوط أفزعها
تحت الضلوع مروع شهم

والمروع: القلب. وقال أيضاً:

وتسد حاذَيْها بذي خُصَلٍ
عقمت فناعم نبته العقم

والحاذان: لحمتان في باطن الفخذين، والمراد أن هذه الناقة تسد ما بين فخذيها بذنب ضاف له خصل من الشعر. وقال أيضاً:

ولها مناسم كالمواقع لا
معر أشاعرها ولا درم

والأشعر: هو ما أحاط بالخف من الوبر، والمعر: قلة الشعر، والدرم: يقال كعب أدرم إذا لم يتضح حجمه لكثرة اللحم. وقال عبدة بن الطبيب:

رعشاء تنهش بالذفرى مواكبة
في مرفقيها عن الدفَّين تفتيل

والـذفرى: عـظم خـلـف الأذن، والدفان: الجانبان. وقال ذو الرمة:

إذا استوجـست آذانها استأنـست لها
أناسـي ملـحود لـها في الحـواجب

استوجست: تسمعت، واستأنست لها العيون: نظرت إليها، وأناسي: جمع إنسان، وأراد به إنسان العين. وقال أيضاً:

تمـوج ذراعـاها وتـرمـي بـجوزهـا
حذاراً مـن الأبعـاد والرأس مكـمح

تموج: تجيء وتذهب، يريد حركتها في السير، وجوزها: وسطها، والرأس مكمح: مرفوع، تقول العرب: كمحتُ الناقة وأكمحتها: إذا جذبت زمامها حتى رفعت رأسها. وقال أيضاً:

طـوال الـهوادي والحـواري كـأنـها
سمـاميـج قب طـار عنـها نسـالهـا

الـهوادي: الأعـنـاق، والحواري: الأرجل، وسـماميـج: طوال، وقب: حمر، والنسال: الشعر. وأضاف ذو الرمة قائلاً، مفرقاً بين الذكر والأنثى من الإبل:

عَبَـنٌّ القرا ضـخم الـعثانـين أنبتـت
مـنـاكـبه أمـثـال هـدب الـدرانـك

عَبَنٌّ القرا: ضخم الظهر، والعثانين: الشعر الذي تحت حنك البعير. الدرانك: نوع من البُسط. وقال طرفة بن العبد:

وطـي مـحـال كـالحنـيّ خـلـوفـه
وأجـرنـة لـزت بـدأي مـنـضـد

المحال: فـقار الـظهـر، والحنـي: القسي، والخلوف (خلف): الأضلاع، والأجرنة (جران): باطن الرقبة، واللز: الفم، والدأي: خرز الظهر أي فقراته. والنضد: وضع الشيء فوق الشيء. يقول الشاعر: هذه الناقة لها فقار مطوية متراصة متداخلة كأن الأضلاع المتصلة بها قسي، ولها باطن عنق ضُم وقرن إلى خرز عنق نضد على بعض. وقال أيضاً:

لـهـا مـرفـقـان أفـتـلان كـأنـهـا
تمـر بـسـلـمَـيْ دالـج مـتـشـدد

الأفتل: الشديد، والسلم: الدلو لها عروة واحدة، والدالج: الذي يأخذ الدلو من البئر. وقال أيضاً:

أمرَّت يـداها مـثل شـزر وأجنحـت
لهـا عضـداها فـي سقـيف مـسنـد

والإمرار: إحكام الفتل، والشزر: الفتل أو الغَزْل، والإجناح: الإمالة. ثم قال:

وجـمـجـمة مـثـل الـعـلاة كـأنمـا
وعى الـملتقى مـنها إلى حـرف مبرد

يقول طرفة: إن لهذه الناقة جمجمة تشبه العلاة من الصلابة فكأنما انضم طرفها إلى حد عظم يشبه المبرد في الحدة والصلابة. والملـتقى: مـكان الالتـقاء، وهو طـرف الجمجمة لأنه يلتقي في فراش الرأس. وقال:

وخـد كقـرطاس الـشآمـي ومشـفر
كَـسَبْـتِ الـيـماني قـده لـم يجـرد

وعينان كالماويتين استكنتا
بكهفي حجاجي صخرة قَلْتِ مورد

الماوية: المرآة، والكهف: الغار، والحجاج: العظم المشرف على العين الذي هو منبت شعر الحاجب. ومعنى قول الشاعر: إن لهذه الناقة عينين تشبهان مرآتين في الصفاء والنقاء والبريق، وتشبهان في الصفاء ماء في قَلْت (والقلت: النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء). وشبه عينيها بكهفين في غورهما، وحجاجيها فوق العيون بالصخرة في الصلابة. وقال أيضاً:

طروحان عوار القذى فتراهما
كمكحلتي مذعورة أم فرقد

يقول: وهاتان العينان تطرحان وتبعدان القذى عنهما، وهما تشبهان عيني بقرة وحشية لها ولد، وقد أفزعها قانص أو عدو. تقول العرب: إن عيون البقرة الوحشية في حالة الخوف أحسن ما تكون. وقال أيضاً:

وصادقتا سمع التوجس للسرى
لهجس خفي أو لصوت مندد

مؤللتان تعرف العتق فيهما
كسامعتي شاة بحومل مفرد

التوجس: التحسس والتحري، والسرى: سير الليل، والتهجس: الحركة الخفيفة، والتنديد: رفع الصوت، والتأليل: التحديد والانتصاب، والسامعتان: الأذنان. والشاة: الثور الوحشي. يقول الشاعر: إن لهذه الناقة أذنين صادقتي الاستماع في حال سير الليل لا يخفى عليهما صوت خفي ولا صوت رفيع. وهاتان الأذنان محددتان دقيقتان تُعرف نجابة هذه الناقة بهما، وهما كأذني ثور وحشي منفرد في موضع معين وهو خائف متوجس. والدقة والحدة في الآذان تحمد وتفضل في البعير. وقال طرفة أيضاً:

وأروع نباض أحذ ململم
كمرداة صخر في صفيح مصمد

أي إن لهذه الناقة قلبا يرتاع لأدنى شيء لفرط ذكائه، وهو نباض سريع الحركة خفيف صلب، مجتمع الخلق يشبه صخرة تكسر بها الصخور من صلابتها، وهذا القلب بين أضلاع تشبه حجارة صلداء. وقال أيضاً:

وأعلم مخروق من الأنف مارن
عتيق متى ترجم به الأرض تزدد

والأعلم: المشقوق الشفة العليا، والمخروق: المثقوب، والمارن: ما لان من الأنف. يقول الشاعر: لهذه الناقة مشفر مشقوق، ومارن أنفها مثقوب، وهي عندما ترمي الأرض بأنفها ورأسها تزداد في سيرها. ويقول نصيب:

وأعلم مخروق من الأنف مارن
صريف وباقي النقي منها شرائد

والصريف: صرير الأنياب، والنقي: مخ العظم. وقال علقمة بن عبدة:

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي
لكلكلها والقصريين وجيب

قال الأصمعي: والقصريان: هما ضلعان يليان الخلف، وهما الضلعان الصغيران في آخر الأضلاع، ويقال: هما جوانح الصدر، وجوانح الصدر أضلاعه. وقال كعب بن زهير بن أبي سلمى:

من كل نضاحة الذفرى إذا عرقت
عرضتها طامس الأعلام مجهول
وجلدها من أطوم ما يؤيسه
طلح بضاحية المتنين مهزول
كأن ما فات عينيها ومذبحها
من خطمها ومن اللحيين برطيل

وقال أيضاً:

سمر العجايات يتركن الحصا زيما
ولا يقيها رؤوس الأكم تنعيل

والعجايات: عصب الأرساغ، وزيما: متفرقة.

وقال أوس بن حجر:

هُدْلاً مشافرها بُحَّاً حناجرها
تزجى مرابيعها في صحصح ضاحي

وقال الفرزدق:

فما بلغت حتى تواكل نهزها
وبادت ذراها والمناسم رُعَّفُ

وقال عبيد الراعي:

حدب السراة وألحقت أعجازها
روح يكون وقوعها تحليل

وقال زهير بن أبي سلمى:

من لا يذاب له شحم السديف إذا
زار الشتاء وعزَّت أثمن البدن

والسديف: شحم سنام البعير، والبدن: النياق السمينة. وقال ذو الرمة:

طويل النسا والأخدعين شمردل
مضبرة أوراكه ومناكبه

والنسا: عرق يستبطن الفخذ ويمتد إلى الساقين، والأخدعان: عرقان في القفا، والورك: ما فوق الفخذ، والمنكب: مجتمع عظم العضد والكتف. ويقول منصور النمري مشيراً إلى عين البعير.

بخوص كالأهلة خافقات
تلين على السرى وعلى الهجير

والخوص: جمع خوصاء، وهي الناقة التي في عينيها غؤور وصغر. وقال عبدالله بن الزبير:

وقد ضمرت حتى كأن عيونها
نطاف فلاة ماؤها متصبب

وقال علقمة بن عبدة أيضاً:

وعيس بريناها كأن عيونها
قوارير في أدهانهن نضوب

ويقصد الشاعر أن هذه العيس أنضيت وأتعبت، فغارت عيونها حتى

صارت في دخولها في القفا كأنها قوارير بقي القليل من أدهانها. وقال الأخطل:

مصاحب خوص قد نحلن كأنما
يقين النفوس أن تمس الكلاكلا

وكأن الشاعر يقول: إنه ارتحل إلى حبيبته على نياق خوص أي غائرة العينين من التعب، وأنها أوشكت أن تمس كلاكلها (صدورها) الأرض من الإعياء والتعب، ومع ذلك فهي تجهد نفسها لتمنع حدوث ذلك. وقال الأخطل أيضاً:

ومهمه طامس تخشى غوائله
قطعته بكَلوء العين مسهار

والطامس: المقفر والموحش، غوائله: مهالكه، وكلوء العين: أي أن عينها متنبهة وعارفة لما تريد. واستطرد قائلاً:

وهن بنا عوج كأن عيونها
بقايا قلات قلصت لنضوب

العوج: الطوال، وقلصت: غارت، ونضوب: ذهاب الماء. يقول الشاعر: إن عيون هذه الإبل لشدة تغورها من التعب بدت كالنقرة في الجبل التي أوشك ماؤها على النضوب والجفاف. وقال أيضاً:

وتلمح بعد الجهد عن ليلة السرى
بغائرة تأوي إلى حاجب ضمر

ضمر: أي ضامر. ومعنى قول الشاعر: إن هذه الناقة بعد أن تسير الليل كله تغور حدقتا عينيها ويضمر حاجباها، ويبدو الإعياء على وجهها من خلال عينيها. يتضح من هذه الأوصاف أن العين مقياس لصحة البعير وسمنه أو تعبه. وقد قالت العرب في أمثالها «هم في مثل حدقة البعير» وذلك لأن حدقة البعير أخصب ما فيه، ولأن العرب يعرفون بها مقدار سمنه. وأضاف الشاعر قائلا:

وقد ضمرت حتى كأن عيونها
بقايا قلات أو ركي ممطل

يصف الشاعر ضمور هذه الناقة من خلال تغور عينيها اللتين يشبههما بفجوة في صخرة أو ركية جفت المياه فيها. وقال القطامي واصفاً عين البعير:

خوصاً تدير عيوناً ماؤها سرب
على الخدود إذا ما اغرورق المقل

ماؤها سرب: أي دموعها سائلة من الكلال والتعب، واغرورق المقل: أي ملأها الدمع، والمقل جمع مقلة: وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض. وقال ذو الرمة:

على خوصاء تذرف مأقياها
من العيديّ قد لقيت كلالا

يقول الشاعر: أنا على ناقة غائرة العينين، تذرف مأقياها الدموع من الإعياء والتعب أو بسبب ضراب الفحل العيديّ،

وهو اسم لنوع من الإبل الأصائل. وقال ذو الرمة في وصف أذني البعير:

وأذن تبين العتق من حيث ركبت
مؤللة زعراء جيدة النصب

ومؤللة: محددة منصوبة قائمة، وزعراء: أي قليلة الشعر. وقال أيضاً:

لها أذن حشر وذفرى أسيلة
وخد كمرآة الغريبة أسجح

أذن حشر: محددة دقيقة (يستحب في البعير أن يكون حشر الأذن). وشبّه خدها في الاستواء بالمرآة وخصّ مرآة الغريبة لأنها تكون أكثر صقلاً واستواءً لأن المرأة إذا كانت غريبة في غير قومها كانت أحرص على تعهد صورتها ومظهرها فيزداد حرصها على مرآتها. وقال أيضاً:

بمجلوزة الأفخاذ بعد اقورارها
مؤللة الآذان عفر نزائع
مضبرة شُمٌ أعالي عظامها
معرفة الألحي طوال الأخادع

والجلز: شدة الطي. يقول هذه الناقة مكتنزة الأفخاذ، ضامرة، أذناها عفراوان محددتان، طويلة، قليلة لحم اللحي، طويلة العنق. ويقول كعب بن زهير بن أبي سلمى.

قنواء في خرتيها للبعير بها
عتق مبين وفي الخدين تسهيل

قنواء: أي في أنفها قنا وهو الميلان، والخرتان: ثقبا الأذنين، وعتق: كرم. وهنا يقول الشاعر: إذا نظرت إلى أذني هذه الناقة، تعرف أنها أصيلة عتيقة.

وخاتمة القول في ذكر العرب لأجزاء جسم البعير نورد قول ذي الرمة:

جمالية حرف سناد يشلها
وظيف أزج الخطو ريان سَهْوَقُ
وكعب وعرقوب كلا منجميهما
أشم حديد الأنف عار معرق
وفوقهما ساق كأن حماتها
إذا استعرضت من ظاهر الرجل خرنق
وحاذان مجلوز على صلويهما
بضيع كمكنوز الثرى حين يحنق
إلى صهوة تحدو محالا كأنه
صفا دَلَصَتْهُ طحمة السيل أخلق
وجوف كجوف القصر لم ينتكب له
بآباطه الزل الزهاليل مرفق
وهاد كجذع الساق سام يقوده
معرق أحناء الصبيين أشدق

الوظيف: مقدم الساق، وأزج الخطو: طويل الخطو، والمنجم: حذاء الكعب، وحديد: محدود، وأنفه أعلاه عار من اللحم، والحماة: لحمة الساق من ظاهره وهي الغليظة، واستعرضت: نُظر إليها، الخرنق: الأرنب الصغيرة. والحاذ: هو ما وقع عليه الذنب من

الفخذ، ومجلوز: مطوي، والبضيع: اللحم، والصلوان: ما عن يمين الذنب وشماله، والصهوة: أعلى الظهر، والمحال: فقار الظهر، ودَلَصَتْهُ: فَرَّقَتْهُ، وطحمة السيل: شدة دفعه، والهادي: العنق، والمعرق: اللحم.

وذكر الشعراء أيضاً وبر البعير، يقول النابغة الذبياني:

الواهب المائة الأبكار زَيَّنَهَا
سعدان توضح في أوبارها اللبد

وقال ذو الرمة:

جرى النسء بعد الصيف عن صهواتها
بحولية غادرنها في المعارك

النسء: أول السمن، وحولية: يريد وبر الولادة وهي العقيقة، وكأن الشاعر يقول: سقطت عنها عقيقتها في معاركها وهي أماكن الاعتراك، وغادرنها: تركنها. ومعنى البيت: أن الإبل لما أكلت سمنت فطرحت الوبر القديم ونبت لها وبر جديد.

وقد ورد في الأمثال قولهم «لقي ما يلقى المنتوف باركاً». وذلك أن البعير ينتف وبره وهو بارك.

وهذه الأوصاف التي ذكرها الشعراء الأولون أشار إليها الشعراء الشعبيون في قصائدهم بإسهاب. وسوف نورد نماذج من تلك الأشعار في الفصول القادمة.

تكيّف الإبل مع مناخ الصحراء

تعرف المنطقة الصحراوية علمياً بأنها تلك المنطقة التي تتراوح كمية المطر فيها بين ٥٠ و ١٥٠ملم في العام، وتزيد فيها درجة تبخر المياه على كمية هطول الأمطار. وتوجد صحارى الكرة الأرضية، على طول السواحل الغربية لأمريكا الجنوبية وجنوب أفريقيا ووسط وجنوب جزيرة العرب، إضافة للصحراء الكبرى في شمال أفريقيا والتي تمثل ثلث المناطق الصحراوية على كوكب الأرض. والصحراء الكبرى أكثر صحاري العالم جفافا وحرارة، ومع ذلك تعيش فيها الإبل العربية بأعداد هائلة وكفاءة نادرة.

وقد ترتفع درجة الحرارة في الصحارى في فصل الصيف حتى تصل إلى ٧٠ درجة مئوية. وينتج هذا الارتفاع، ليس فقط عن شدة حرارة أشعة الشمس الساطعة طول النهار، ولكن أيضا من الانعكاسات الحرارية بفعل التربة الرملية. كما أن ليالي هذه المناطق - خاصة الصخرية منها- حارة، نتيجة تأثرها بالأشعة الحرارية المنبعثة. وعلى الرغم من أن درجة حرارة التربة الرملية تتغير بسرعة خلال اليوم الواحد على مدار العام، فإن الإبل العربية لها القدرة على تحمل مثل هذه الظروف القاسية.

ونورد فيما يلي نبذة مختصرة عن كيفية تأقلم الإبل مع حياة الصحراء، وعن صفاتها وطباعها التي لها دور في هذا التأقلم.

عندما تشرب الإبل العطشى كمية كبيرة من الماء، فإنه ينتشر خلال جدار الكرش إلى بلازما الدم بمعدل بطيء نسبياً، محققاً ٢٥٪ من قيمة التوازن المائي في الساعة على عكس الثدييات الأخرى. ومن ناحية ثانية، فإن تخفيف الدم بالماء المنتشر يصل لدى الإبل إلى مدى لا يمكن احتماله من قبل الثدييات الأخرى التي تنفجر خلاياها الحمراء في المحاليل ناقصة التركيز. ويرجع السبب في ذلك إلى مرونة أغشية خلايا الدم الحمراء عند الإبل، بحيث يمكن أن تنتفخ إلى ٢٤٠٪ من حجمها الأساسي دون أن تنفجر.

درجة الحرارة. للبعير ميكانيكية حرارية متميزة عن الثدييات الأخرى. فمن المعروف علمياً أن معظم أنواع الثدييات تعرق عند ارتفاع درجة الحرارة. فيساعدها هذا التعرق على تلطيف درجة حرارة الجو والتخلص من الحرارة الزائدة، والاحتفاظ بدرجة حرارة أجسامها ثابتة. إضافة إلى أنها تهرب بطريقة ما من التعرض لأشعة الشمس مباشرة. وعلى العكس من ذلك، فإن البعير له قدرة خاصة على تنظيم فقدان الماء بالتعرق، ولذلك فهو يتحمل مدى واسعاً من تغيرات درجة حرارة الجو المحيط، وذلك بقدرته على تغيير درجة حرارة جسمه وتكييفها مع تغيرات درجة الحرارة خلال الليل والنهار. ولقد وجد العلماء أن منع البعير خلال الصيف من شرب الماء يخفض درجة حرارة جسمه إلى ٣٤,٢ْ مئوية في الصباح الباكر، ثم ترتفع بعد الظهر إلى ٤٠,٧ْ مئوية. أما عندما يتاح للبعير الشرب بانتظام تحت الظروف نفسها، فإن الفرق بين الدرجتين السابقتين يَقِلُّ إلى ما بين درجتين وثلاث درجات، أي بينما تكون درجة حرارته في الصباح ٣٦ْم فإنها تصل بعد الظهر إلى ٣٩ْم. وهذه الاختلافات في درجة حرارة البعير في الصيف مشابهة لما يحدث له خلال فصل الشتاء.

التعرق. يشبه البعير الثدييات الأخرى، الموجودة في المناطق الصحراوية الحارة، بوجود الوبر على جلده لحمايته عند ارتفاع درجة الحرارة في الصيف؛ لأن الوبر يسمح في الوقت نفسه بتبريد حرارة الجسم الزائدة وذلك بتنظيم عملية التعرق. وقد يبدو عند النظر لجسم البعير أنه لا يعرق، بينما العكس صحيح.

ويظهر ذلك جليا إذا نظرنا إليه ظهرا - خاصة في منطقة ما تحت الوثر أو تحت الأثقال المحمولة- فتتضح رطوبة العرق الكثيفة لعدم حدوث تبخر ملحوظ. وقد وجد أن البعير ينتج في الساعة أكثر من ٢٨٠ملم من سائل العرق لكل متر مربع من سطح الجلد. ويتم تبخير العرق على سطح الجلد نفسه أيام الصيف الحارة، لتلطيف درجة حرارة الجسم. وهذه الطريقة تؤدي إلى زيادة كفاءة تبريد جسم الحيوان. ولا يحدث ذلك عن طريق الجسم فحسب، بل من خلال عملية التنفس، لأن معدل التنفس يختلف بصورة كبيرة. ولكن دور التنفس ليس أساسيا في هذه العملية؛ نظراً لاختلاف معدله من وقت لآخر. فهو يتراوح بين ٦ إلى ١٨ مرة في الدقيقة، كما أنه لا يزيد بصورة مفاجئة عند حدوث ارتفاع في درجة الحرارة كما هو الحال لدى الحيوانات الأخرى.

وللبعير سلوك خاص لتقليل وتنظيم عملية التعرق، سواء كان قد شرب الماء أو لم يشربه. فالبعير يمكنه أن يستريح طوال اليوم في المكان نفسه ليتجنب التبخر، ويكون دائما مواجها للشمس وحركتها في السماء. فإذا تحرك تكون حركته بسيطة جداً ليكتسب من الأرض أدنى كمية من الحرارة. وأثناء فترات الذروة في الصيف تتجمع الإبل دائما في مجموعات متقاربة، لأن التوصيل الحراري بين أجسام مجتمعة أقل نسبةً منه بين أجسامها والهواء يحيط بها مباشرة.

وذكر الحبردي أن البعير في الصيف، إذا توفرت له بعض النباتات الخضراء، مثل السعدان والحماط، فإنه لا يهتم بشرب الماء، خصوصاً إذا كانت موارد المياه بعيدة عنه، وكانت الأرض التي هو فيها خصبة المرعى ولا يرغب في مفارقتها؛ فيحتال على العطش بأكل الأعشاب الغضة أثناء الليل، واختيار مَبْركه في النهار تحت ظل شجرة تكون في مكان مرتفع يهب عليه الهواء فيقلُّ إفراز العرق من جسمه. وينتظر في ذلك المكان حتى تميل الشمس إلى المغيب أو حتى تغرب، فينهض من مبركه ويستمر في الرعي معظم الليل حتى مطلع النهار. وهذا يدل على أن تعرَّق البعير أثناء النهار يفقد جسمه كمية من الماء (١٤٠٩: ١١١).

إخراج الفضلات. لا يفقد الجمل سوى كمية ضئيلة من الماء في الطقس البارد، بالتبخر أو عن طريق البول والدمن. ونسبة فقدان الماء عن طريق

التبخر (يشمل عمليتي التنفس والتعرق) تزداد خلال فصل الصيف لتصل إلى ٦٥٪ من المجموع الكلي للماء المفقود. أما فقدانه عن طريق التبول، فهو قليل خلال الصيف، حتى لو كانت الإبل تشرب كل يومين أو ثلاثة أيام، فبولها يصل لحوالي ١,١ لتر/ يومياً، ويمكن أن يصل المعدل اليومي لإفراز البول إلى ٧ لترات، وقد قدرت كمية الماء المفقود عن طريق البول لإبل يزن كل منها ٢٥٠ كجم، وتحمل ١٠٠ كجم من الأثقال وقطعت مسافة ١٠٠ كم بمعدل ١٠-

ناقة تدمّن

١٥ كم/ يومياً. فإذا استراحت لمدة يوم واحد فإن كمية البول تبلغ حوالي ٨,٨ لترات في صيف درجة حرارته العليا بين ٤٠-٤٧م والدنيا بين ٢٥-٣٢م.

أما فقدان الماء عن طريق التدمين (إخراج فضلات الطعام) فقد وجد الباحثون أن كمية الدمن ومحتواها من الماء تختلف من وقت لآخر اعتماداً على نوعية الغذاء وحجمه ودرجة هضمه. فقد لوحظ أن الدمن تكون صلبة عندما يكون العلف (الحشائش والأعشاب) المأكول صلباً متخشباً، وليس ليناً رطباً. ولقد وجد أن كمية الماء المفقود عن طريق التدمين للبعير الواحد حر الرعي، تراوحت ما بين ٤٠ إلى ٦٦٪، ويعتمد ذلك إلى حد ملحوظ على نوع الغذاء المأكول وكميته.

وتساعد كلية البعير على تأقلمه مع حياة الصحراء، بحيث يمكنها تقليل إفراز البول وتركيزه. وفي هذا يختلف البعير عن أغلب الثدييات الأخرى، فهو يستطيع إنتاج بول تركيزه ملحي أكثر بمرتين من تركيز الملح في ماء البحر. كما أن البعير إذا تغذى بمادة فقيرة في محتواها من البروتين، قلَّت في بوله مادة (اليوريا) كثيراً. ومردُّ ذلك إلى أنه يحتفظ بنواتج هدم البروتين الغذائي ولا يطردها كالمعتاد خارج الجسم، ولكنه ينقلها إلى الكرش

مع تيار الدم عـن طريق اللعاب وجدار الكرش، ويستخدمها الـبعير في تكوين البروتـين اللازم لبنـاء جسمه، وحـفظ صحته ونشاطه، مستعينا في ذلك بنشاط الميكروبات المفيدة التي تقطن كرش البعير بصفة طبيعية مستمرة. ويُمرَر هذا البروتين إلى الأمعاء حيث يتم امتصاصه في الدم. ويحدث هذا الاقتصاد في إفراز اليوريا، ليس فقط عندما يكون الغذاء المأكول فقيراً في محتواه من البروتينات، ولكن أيضاً عندما تزداد حاجة البعير إلى البـروتين؛ مثل الحوار الذي يحتاج للبروتـين بكثرة لبناء خلايا جسمه، وكـذلك الناقة أثناء حملها وإرضاعها لوليدها.

وللبعيـر القدرة على تحمل العطـش لمدة أطول من أي حيوان مستأنس آخر. ويعتمد عدد المرات التي يشرب فيها البعير على عمـره، وطبيعة مجهوده، ودرجـة رطوبـة الجو ودرجة الحـرارة في اللـيل والنهار، وكذلك على نوعية الغذاء الذي يتناوله وكميته ونسبة الماء المـوجودة فيه. والإبل لا تشرب الماء خلال الشهور الباردة حتى لـو توافر لها، ويعـود السبب في ذلك إلى حصولها على الكمـية المطلوبة لجسمهـا من الماء الموجود في الأعشـاب التي تتغذى بها. وتحتوي هذه الأعشاب في المتـوسط على ٥٠٪ إلـى ٦٠٪ من وزنها ماء خلال الشهور الباردة. ويمكن للبعير أن يسير مسافة قد تصل إلى ١٠٠٠ كم دون أن يشرب. كما تـستطيع الإبل أن تسير من ١٠ إلـى ١٥ يوماً دون ماء عندمـا تكون درجة حرارة الجـو حوالي ٣٠ْ مئوية. كـما يمكنها أن تقضـي فترة طويلة خلال الصـيف في بعض المناطق من دون شـرب. أما إذا تجاوزت درجة الحرارة ٤٠ْم فإن الإبل تحتاج للشرب على فترات قصيرة منتظمة. ويحدث ذلك فقط خلال الأسابيع التي تكون درجة الحرارة فيها عند أعلى مستوى لها. ومع هذا فإن مرور ليلـة باردة، أو هطول مطر لـفترة قصيرة، خلال تلك الفترة، يساعد على إطالة المدة التي يمكـن للبعير أن يقضيها دون شرب. كما يمكن للـبعير أن يعمل بطريقة متواصلة حتى يفقد سنامه ويبقى جلداً على عظم، ويمكنه أن يسير لمسافات أطول وأفضل من جمل ممتلئ السنام.

وجاء في بعض المصادر أنه منذ قرن من الزمن استطاعت قافلة من الجمال، يحمل كل جـمل منها ٣٥٠ كجم من المؤن والمتاع، أن تقطع مسافة ٤٤٧ كم خلال ١٦ يوماً في فصل الصيف الحار. وبعد أن اسـتراحت ليوم واحـد فقط، قطعت مـسافة أخرى طولهـا ٢٤٠ كم دون أن تشرب ولو مرة واحدة.

ويمكن تشخيص حالة فقدان جسم البعير للماء بالنظر إلى جانبيه خلف الأضلاع (شاكلتيه) إذ يبدوان مجوفين. ويعرف رجال البادية هذه الحالة جيداً، ويمكنهم أن يقدروا بدقة متى يحتاج الجمل للشرب.

والبعير العربي لا يقبل على شرب الماء غير النظيف، لذلك ينظف أصحاب الإبل الماء من المواد العالقة به قبل تقديمه لها. كما أنه لا يشرب المياه الطينية إلاّ إذا لم يجد غيرها، ما عدا العيوف من الإبل فإن شربها من هذه المياه جدّ قليل. وتعتمد سرعة شرب البعير للماء على طبيعة البعير نفسه، فالبعير العادي يمكنه أن يشرب كمية تتراوح بين ١٠ إلى ٢٠ لتراً أو أكثر في الدقيقة، بينما قد يصل ما يشربه بعير آخر إلى ٢٧ لتراً في الدقيقة. وقد لاحظ بعض الباحثين أن الإبل تبدأ بشرب كمية قليلة من الماء بسرعة ثم تتبع ذلك بكمية أكبر ببطء، أو بالعكس. وبوجه عام فإنه توجد علاقة عكسية بين العطش وسرعة الشرب. وأثناء الشرب يرفع البعير رأسه على فترات قصيرة ويهز رأسه لإزالة الماء عن مشفريه.

خزن البعير للماء. للبعير قدرة كبيرة على شرب كميات كبيرة من الماء في المرة الواحدة، وليس ذلك لاختزانه الماء بغرض استخدامه مستقبلا، فإنه لم يثبت علمياً حتى الآن أن البعير يخزن الماء في مكان ما في جسمه على هيئته الطبيعية، بل ليعوض الماء المفقود من جسمه عن طريق التعرق والبول والبعر. ففي درجة حرارة تصل إلى ٤٠ْم أو تزيد عن ذلك وجد أن بعض الإبل تشرب من ١٠٠ إلى ١٣٥ لتراً من بداية شربها حتى تبتعد عن الماء. أما الإبل التي فقدت ٤٠٪ من وزنها العادي فيمكنها أن تشرب ٢٠٠ لتر في اليوم.

ولّما كان للإبل القدرة الفائقة على العيش لعدة أيام من غير ماء، حتى في الصحارى الشديدة الحرارة، فقد ساد الاعتقاد بين الباحثين الأوائل أن الإبل تخزن الماء في أماكن معينة من أجسامها لاستعماله عند الضرورة. وقد تمت عدة محاولات لتحديد تلك الأماكن؛ شملت تشريحاً متأنياً لكرش البعير، وكانت النتيجة عدم وجود أي حيز مخصص لخزن الماء فيها.

ومن ناحية أخرى فقد لاحظ بعض الباحثين وجود ثلاثة مجاميع من الجيوب المائية في جانب الكرش الأول للبعير، وكل جيب منها له القدرة على خزن ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ سم^3 مكعب من الماء. أي أنها جميعها تختزن كمية ضئيلة من الماء تقل عن لتر واحد، غير أن هناك

آخرين ذكروا أنهم وجدوا في بعض كروش الإبل المذبوحة فجوات تحتوي على ماء ما بين ٥-٧ لترات في كرش كل جمل، وربما وجدوا من الماء أكثر أو أقل من ذلك. وقام بعضهم بدراسة دقيقة على ثلاثة عشر بعيراً مذبوحاً، ووجد أنه على الرغم من وجود رطوبة فعلا في جيوب الكرش الأمامية، إلا أن هذه الجيوب كانت مملوءة بالغذاء المهضوم على هيئة مائعة وليس على صورة ماء نقي. ومثل هذا السائل يوجد بكميات كبيرة في كروش جميع الحيوانات المجترة.

ويعتقد بعض الباحثين أن كرش البعير تختلف اختلافاً جوهرياً عن كروش الحيوانات المجترة الأخرى، ولهذا فإن الإبل ليست قريبة من المجترات الحقيقية. كما لا يزال هناك عدد من الباحثين يعتقدون أن البعير يخزن الماء في سنامه وليس فقط في معدته، وهو اعتقاد غير صحيح. فسنام البعير يتكون غالباً من الدهون التي يختزنها عندما تكون المواد الغذائية متوافرة له. فإذا جاع ولم يجد ما يسد رمقه فإنه يستهلك دهن سنامه الذي يتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥ كجم حتى يختفي السنام. وربما زاد سنام البعير عن ٥٠ كجم، لذلك يقاس سمن البعير من هزاله بسنامه؛ فيقال «بعير عليه من الشحم طول يده» أي سمين جداً و«عليه من الشحم كبر رأسه» أي متوسط السمن و«عليه كبر خشمه» أي أنه قليل السمن، و«سنامه عظم» أي أنه هزيل. والحقيقة العلمية الثابتة أن استخدام الدهون مصدراً للطاقة ينتج عنها كمية كبيرة من الماء، ولكن عملية الحرق الحيوي هذه تحتاج إلى أوكسجين يحصل عليه الحيوان عن طريق التنفس.

ومما سبق يتضح أنه لا توجد أدلة علمية على أن البعير يخزن الماء على هيئته السائلة في أي مكان من جسمه. فالحقيقة العلمية الثابتة هي أن الجمل يستطيع أن يشرب أكثر من مائة لتر من الماء بعد السير لمدة عشرة أيام من دون شرب. والمنطق يقول إن الجمل يخزّن بالفعل هذا الماء ليستخدمه عند الحاجة إليه، ولكن السؤال: أين يخزنه؟! إن أحداً من الباحثين لم يتمكن -بعد- من معرفة مكان تخزينه في جسم الجمل، كما أنه لم يقم دليل على أن كمية الماء في جسم الجمل تكون أعلى مما هي عليه في جسم أي حيوان مجتر آخر.

تحمل الإبل للعطش. تستطيع الإبل أن تتحمل الجفاف الشديد. فإن كان الإنسان يُشرف على الهلاك إذا فقد ١٢٪ من ماء جسمه، فالبعير الهزيل له القدرة على تحمل فقدان الماء حتى حوالي ٤٠٪ من وزنه. ومن ناحية أخرى، عندما تصل

درجة حرارة جسم البعير إلى ٤١ْم فإنه يفقد الماء بمعدل بطيء نسبيا يتراوح بين ١٩ , ٢٣ جراماً لكل كيلوجرام من وزن الجسم خلال اليوم. ويعود السبب في ذلك إلى أن البعير، كما سبق أن ذكرنا، لا يفقد سوى القليل من الماء عن طريق التعرق والتبول والتنفس والبعر، إضافة لانخفاض أيضه الغذائي. وقد أوضحت الدراسات العلمية المختلفة الأسباب التي جعلت البعير يتحمل فقدان كمية كبيرة من ماء جسمه قد تزيد عن ٢٠٪ من وزنه، من دون أن تحدث له أضرار فسيولوجية. فمن هذه الأسباب: أن النقص في مقدار دم البعير لا يحدث بنسبة النقص في مقدار ماء الجسم، فإذا فقد البعير ٢٥٪ من ماء جسمه فإن النقص في مقدار دمه يقل عن ١٠٪ من مقداره الكلي، بينما تصل النسبة المفقودة من مقدار دم الإنسان تحت الظروف نفسها إلى أكثر من ٣٠٪. فعندما فحص بعض الباحثين الجهاز الوعائي الشعري (شعيرات الدم الدقيقة) للبعير، باستخدام المجهر الإلكتروني ذي قوة التكبير العالية، اتضح أن هذه الأوعية لها جدران غليظة جداً، وأن مجاريها ضيقة، ولا توجد فتحات في جدرانها. وهذا يدل على أن تركيب جدران الأوعية الدموية الشعرية للبعير يساعد في منع فقدان ماء الدم منها أثناء تعرض البعير لحالات جفاف شديدة. ومن المعتقد أيضاً أن الخلايا الحمراء في دم البعير، قد تأقلمت مع الظروف الصحراوية؛ فهي بيضاوية الشكل دقيقة، يصل عددها إلى نحو ١٢,٥ مليون خلية في المليمتر المكعب.

وتسمح دقة حجم هذه الخلايا الدموية الحمراء باستمرار الدوران خلال الجسم، حتى ولو زادت لزوجة الدم بسبب فقدان كمية ملحوظة من الماء. وعلى الرغم من أن الكمية الكلية للهيموجلوبين (خضاب الدم) في دم البعير لا تزيد عن تلك الموجودة في الثدييات الأخرى، فإن تركيز الهيموجلوبين في كل خلية دموية في البعير يكون أعلى منه في الثدييات الأخرى. كما أن هذا الهيموجلوبين في دم البعير له قوة جذب أعلى للأوكسجين. ولهذا فالبعير يستطيع أن يأخذ كمية من الأوكسجين بالنسبة لوحدة حجم الخلايا، أكثر مما يأخذه كثير من الثدييات الأخرى، إضافة لذلك فإن (بلازما) دم البعير تحتوي على كمية كبيرة نسبيا من (الألبيومين) المعروف عنه مقاومته للعطش بشدة.

ويتضح من تركيب بعض أجزاء أجسام الإبل، أن الله سبحانه وتعالى قد وهبها القدرة التامة للتأقلم مع حياة

الصحراء. فمن دلائل هذا التأقلم قدرة الإبل على التغذية بأنواع مختلفة من النباتات، الجافة والشوكية، والصحراوية بصفة عامة، وهضمها، والاستفادة منها. أضف إلى ذلك تركيب عيونها التي تأقلمت للوقاية ضد وهج الشمس وحرارتها وشدة ضوئها، خاصة في المناطق الصحراوية الجافة. كما أنها أيضاً عيونٌ محمية ضد الرمال والغبار. وكذلك فتحات أُنوف الإبل التي يمكنها التحكم فيها بإغلاقها لمنع دخول الرمال والغبار خلالها، إضافة لوجود تجاويف كيسية خاصة فيها لترطيب الهواء المستنشق، وتبريد الهواء الخارج عند الزفير، لتكثيف بخار الماء الموجود فيه والاستفادة منه.

ومن صفات التأقلم الأخرى المهمة للإبل على الحياة في الصحراء، قدرتها على جمع مخزون من الطاقة، على هيئة دهون في السنام، لتستخدمها عند الحاجة مصدراً للطاقة. بالإضافة إلى تلك القدرة على البقاء لفترات طويلة من دون شرب، وتحملها لفقدان نسبة كبيرة من ماء جسمها دون حدوث خلل فسيولوجي فيه. ويتبع ذلك قدرتها على شرب الماء بكميات كبيرة في وقت قصير، لتعويض الماء المفقود من جسمها. وكذلك قدرتها على تحمل الحرارة والتحكم في فقدان الماء، بتنظيم التعرق أو تركيز البول، والارتفاع والانخفاض في درجة حرارة الجسم ليلاً ونهاراً.

كما أن وجود الوبر على الجسم يمثل عازلاً جيداً أثناء انخفاض درجة الحرارة، ويؤكد ذلك ما يلاحظ من بداية نمو الوبر مع دخول فصل البرودة حتى يبلغ تمامه في شدة البرد، ومتى بدأ الجو بالدفء فإن البعير يبدأ في التخلي عن هذا الوبر حتى يتخلص منه في فصل الصيف، كما أن وبر الإبل يزداد طولاً وكثافة في إبل المناطق الشمالية من المملكة ذات الجو الشديد البرودة عن مثيلاتها إبل المناطق الجنوبية والتي يقل وبرها طولاً وكثافة للدفء النسبي في هذه المناطق شتاء، وفي حال وجود إبل من جنوب المملكة في شمالها فإن أوبارها تزداد طولاً وكثافة وخشونة بشكل ملحوظ عن أوبارها في مناطقها الأصلية. ثم تكيف الإبل الخاص بغرض تقليل تعريض أجسامها للحرارة، ومعدل أيضها المنخفض الذي يؤدي إلى اختزال كمية الماء المستهلكة فيها، وقدرتها على إعادة دورة مادة البولينا (اليوريا) في بولها لاستخدامها في تصنيع البروتين، عندما تكون نسبة البروتين منخفضة في غذائها، أو عندما تحتاج إلى كميات أكبر من البروتين.

صفات الإبل وطباعها

للإبل صفات تبدو مظاهرها الخارجية في أشكال متعددة، تارة تحدث صوتاً يدل على طبع أو صفة تتصل بهذا الطبع، وتارة تسلك سلوكاً هو رد فعل أو انعكاس لطبع يرتبط بذلك السلوك في موقف معين.

ومن هذه الصفات أو الطباع ما يتصل بمرعاها وسقياها، أو بضرابها وحملها، أو بعاطفتها تجاه صغارها، أو بتصرفها حيال مُلاّكها ورعاتها، أو هي خاصة بالإبل داخل مباركها، أو على طرق السفر أو في المراعي والصحارى. وقد يصعب على الدارس أن يفصل الطبع عن السلوك أو يصفه لأنه أمر يكون الحيوان مجبولاً عليه تارة ومحمولاً عليه تارة أخرى، ولا يخفى أن للحيوان كما للإنسان مشاعر متباينة تنتابه عند الفرح أو الغضب أو الغيرة أو الجوع أو المرض وغير ذلك. هذه المشاعر يترجمها الحيوان كالإنسان من خلال سلوكه الذي قد يفسر أنه طبع ملازم له. ومن هنا كان في إيرادنا لطبائع الإبل ما يبدو أنه صفة في بعض جوانبه أو وصف لسلوك مجرد يتغير من موقف لآخر، ولكن الذي يعنينا هو أن نستشف هذا الطبع سواء كان مظهره صفة أو سلوكاً، وسوف نركز على بعض صفات الإبل السلوكية التي تميزها عن كثير من الحيوانات.

الانقياد والطاعة. تتصف الإبل، شأنها شأن الحيوانات الأخرى الأليفة أو المستأنسة، بطباع سلوكية خاصة. وتتميز عن مثيلاتها من الحيوانات الأخرى بأنها سريعة التعلم والتعود، وسهلة الانقياد والتوجيه، مرهفة الإحساس، وفية ومطيعة لصاحبها، تأتمر بأمره. والذكور منها شديدة الغيرة على إناثها، والإناث منها شديدة الحرص على مواليدها.

وتميل الإبل إلى التجمع على هيئة قطعان وتتبع الإبل المرعية القعده وهي حدوج الراعي ولا تبتعد عنها كثيراً، بينما الإبل الهمَّل يكون لكل واحد منها اتجاه. كما أن النوق ترعى مطمئنّة إذا كانت مواليدها قرب المقهور، وكذلك ترفض النوق السير في القافلة إذا كانت مواليدها مربوطة.

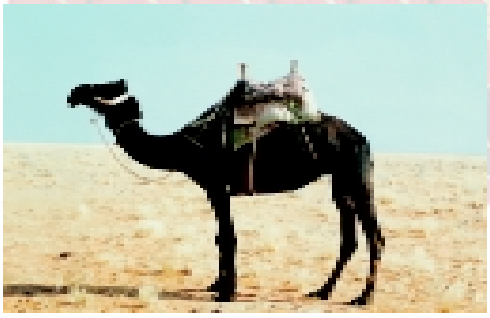

القعدة

ومن دلائل سرعة تعلم الناقة الذلول وتعودها أنها لا تبرك أو تنوخ أو تقف إلا عندما تسمع صيحات صاحبها التي اعتادت سماعها والتي تعطيها الأمر بالنهوض أو البروك. كما أن ميلها إلى التجمع ضمن قطعانها ورعيها في محيط هذه القطعان، صفة من صفات الانتماء.

والإبل حيوانات سهلة الانقياد، شديدة الطاعة، نقل الحتّي عن الدميري قوله في كتابه حياة الحيوان الكبرى:

> والإبل من الحيوانات العجيبة وإن كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها، وهو أنها حيوانات عظيمة الجسم، سريعة الانقياد، تنهض بالحمل الثقيل، وتبرك به، وتأخذ زمامها فأرة، فتذهب بها حيث شاءت. وكانوا قديماً يخزمون أنف البعير بحيث يصبح من اليسير على أي ولد أن يربط حبلاً بأنف البعير المخزوم ويقوده إلى حيث يشاء (١٩٩٠: ٩٨-٩٩).

يقول عباس بن مرداس في خضوع الجمل وسهولة انقياده، بالرغم من ضخامة جسمه:

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفي أثوابه أسد هصور
وقد عظم البعير بغير لبٍ
فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجهٍ
ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى
فلا غِيرٌ لديه ولا نكير

وقد مر بنا أن البعير قبل أن يذلل يكون صعب المراس، خطيراً على من يقترب منه، ولكنه إذا ذُلل سهل طبعه ولان قياده. ولعل من أهم ما يتصل بسلوك الإبل وانقيادها وطاعتها هو عسافها، وهو تدريبها على الطاعة والتحمُّل والركوب. وتبدأ عسافة البعير بوضع الخطام في رأسه، وقد يوضع قيد في ذراعيه ثم يوثق خطامه بخشبة أو خِيْه مثبتة في الأرض أو خشبة مركوزة في الأرض، ويترك البعير يدور ويبرك ويثور غير أن رأسه مشدود. ولا تنفع هذه الطريقة مع بعض الإبل، إذ تبرك ولا تتحرك من مكانها، فيثقبون ثقباً في جدار مرتفع ويعلقون خطام البعير فيه ليقوم ويتحرك فإذا انقاد للخطام شدوا القتب عليه وثبتوه بحباله ليعتاد عليه. ثم يدخل المسنى بقتبه ويعمل له مجر في خطامه يسير به مع السواني دون أن يكون عليه غرب. فإذا أَلِف السني علقوا عليه الغرب، ولا يثقلونه عليه حتى يتدرب

قليلاً قليلاً وينتظم في السني، فيزاد له في غربه حتى يصل إلى الامتلاء. ويصف الشراري العسافة فيقول:

للعسف عدة طرق مختلفة، وأيام محددة. ويتدرج بالعسف من الرباط، إلى الركوب، إلى الشيل (الحمل). ويسمى البعير عسيفاً في فترة العسف؛ ومن أمثالهم «طباع عسيف» ومن الحداء قولهم:

قيفي على الماء قيفي
يارقيبة العسيفي

وإذا حسن عسف الذلول حسنت طباعها؛ ولهذا قالوا «تاقف على الرسن»، و«تاخذ الرسن فتدرع راسها فيه»، و«تبطح رقبتها عند رمي الرصاص»، و«لا تقوم إلا إذا استوى عليها راكبها»... وطرق العسف متعددة، منها الخيه، وهي رباط العسيف، إذ يحفر العاسف (المدرِّب) حفرة بيديه ويربط يدي البعير بثقل مدفون فيها. وهذا الثقل حجر أو تراب أو أيّ ثقل آخر لا يستطيع البعير الانفلات منه بعد دفنه في الأرض. وتكون مدة الربط يوماً أو من الصباح حتى العصر. وأثناء هذه المدة يركب العاسف البعير ويتركه يمشي على رغبته. ومن تطبيع الرعاة لإبلهم تعويدها على التصرف وقت الغارات، وإبان الغزوات والهجمات المباغتة (١٤١٢: ٢٨٩).

الذكاء وحسن الاهتداء. الإبل من الحيوانات التي لها القدرة على معرفة أماكنها والاستدلال عليها والسير إليها، إضافة إلى قدرتها على معرفة مواقع المياه وأماكنها، ومعرفة الحركات والإشارات التي تصدر عن صاحبها. ويذكر أهل الإبل أن لها قدرةً على ورود الماء الذي اعتادته دون توجيه، وقد يكون راعيها نائماً على ظهر الذلول، فترد الماء الذي تعرفه وتصدر عنه في اتجاه المرعى الذي وافت منه، دون توجيه من الراعي في حالة الورد والصَّدَر، لذلك تقول العرب في أمثالها «فلان أهدى من بعير».

ومن طباع الإبل أنها بعد سقيها في الصباح، ويسمى ذلك صبوحاً، تعود إلى معاطنها وتبرك متجهة إلى الشمس. وكذلك إذا كانت في المرعى وأخذت حظها من الرعي فإنها تبرك الظهر بمواجهة الشمس، وتقول البادية عنها مْشامْسِه أو البل شَامِسَتْ. وقد مر في الحديث عن تكيف الإبل مع الصحراء أن هذا المسلك فيه تقليل لعملية التعرق والتعرض للحرارة وتنظيم لهما حفاظاً على الماء.

ويضيفون أن للإبل القدرة أيضاً على تحديد مواقع هطول الأمطار عند رؤيتها

للبرق، إضافة لمعرفتها لأماكن منابت الأعشاب، إذ تتوجه إليها بنفسها.

وقد وردت في التراث العربي إشارات واضحة تدل على ذكاء البعير، منها ما ورد في كتاب الحيوان للجاحظ عن معرفة الإبل بما يضرها وما ينفعها وأن البعير يدخل الروضة والفيضة، وفي النبات ما هو غذاء، ومنه ما هو سم خطر عليه خاصة، ومنه ما يخرج من الحالين جميعاً، ومن الغذاء ما يريده في الحال وما لا يريده في حال أخرى كالحمض والخلة، ومنه ما يتغذى به غير جنسه فهو لا يقربه وإن كان ليس بقاتل ولا معطب. فمن تلك الأجناس ما يعرفه برؤية العين دون الشم، ومنها ما لا يعرفه حتى يشمه، وقد تغلط في البيش فتأكله.

كما أن هروبها وفرارها بعيداً إذا ما كانت طليقة عندما تسمع صوت إطلاق النار أو أي حركة أو جلبة تنذر بحدوث معركة بين أصحابها وآخرين دليل على ذكائها.

وللإبل حاسة شديدة تستطيع أن تتعرف بها طريقها إلى مصادر المياه التي وردتها سابقاً، حتى لو كانت قد شربت منها مرة واحدة فقط، كما يمكنها التعرف على هذا المصدر في ليلة مظلمة عاصفة، إضافة إلى أنها تمتاز بحاسة سمع شديدة (الصانع ١٩٨٤: ١٢٥-١٣١).

لكنَّ الغريب أنها تضل طريقها بعض الأحيان إلى (قلعة ريدا) في شمال الربع الخالي، وهو أمر لا تفسير له.

ويرى الحتي أن الإبل أقل ذكاءً من الكلب والحصان والبغل وغيرها من الحيوانات الأليفة. ومع أن الإبل لم تُعرف بالذكاء المميّز، إلاّ أنها تعرف مكان إقامتها، فهي إذا داهمها الضباب مثلاً، تستطيع الوصول إلى هدفها دون أن تضل (١٩٩٠: ٩٨-٩٩). ويقول الحبردي:

> إن الحداء هو ذلك الصوت الذي يطلقه الراعي أو المالك إلى الإبل لتتبعه إلى المرعى أو للعودة منه أو لدعوتها إلى الشرب. ولكل صاحب إبل نداء مميز تعرفه إبله وقد يكون متوارثاً في القبيلة أباً عن جد، وقد استخدمه وعرفه العرب منذ القدم. وبواسطة الحداء تعرف الإبل أصحابها وما يريدونه منها، وهو في الحقيقة دليل على قوة ذكاء الإبل (١٤٠٩: ٦٤).

وقول العرب «أخف حلم من بعير» لا يدل على عدم الذكاء، ولكنهم قالوا ذلك لما رأوا الطفل الصغير يصرفه كيف يشاء، وهم إنما أرغموا البعير على ذلك بتطويعه بدءاً.

أما ما ورد في الشعر العربي عن ذكاء البعير فهو كثير نذكر منه قول الحطيئة:

إذا آنست وقعاً من السوط عارضت
به الجور حتى يستقيم ضحى الغد

يقول الشاعر: إن هذه الناقة إذا جار بها راكبها عن الطريق الصحيح فإنها تذهب به خلاف ذلك حتى تغلبه فتسير به على الطريق الصحيح. ويقول السفاح بن بكير اليربوعي:

كما استحنت بكرة واله
حنت حنينا ودعاها النزاع

يقول إن البكرة تَوْلَه (تَالَهْ) وتحن إلى مكانها وتظهر الجزع والتّململ على ذلك. أما المتلمس (جرير بن عبدالعزى) فقال:

حنت قلوصي به والليل مطَّرق
بعد الهدوء وشاقتها النواقيس

ويقول ذو الرمة:

تصغي إذا شدها بالكور جانحة
حتى إذا ما استوى في غرزها تثب

أي أن ناقته تصغي وتميل إلى حركة من يريد أن يشد (يضع) عليها الرحل. وجانحة: مائلة ولاصقة، والغرز: سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب. ويضيف ذو الرمة:

إذا عُجْتُ منه أو رأى فوق رحله
تحرك شيء ظن أنيَّ ضاربه

ومعنى قوله هذا: أنه إذا انعطف (مال) أو رأى البعير شيئاً فوق رحله يتحرك يظن البعير أنه سيضربه. ويقول أبو الطيب المتنبي:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل
دعا فَلبَّاه قبل الرَّكب والإبلِ

يقول: يستدعي الطلل دموعي بدثوره فكنت أول من أجابه بالبكاء من أصحابي، وقبل الإبل. والمراد أن الإبل تعرف ذلك الطلل وتبكي عليه كقول التهامي:

بكيت فحنت ناقتي فأجابها
صهيل جوادي حين لاحت ديارها

والمعنى: أنه وقف على ديار محبوبه، فشجاه ما شاهد من دروس رسومها وتغير طلولها (معالمها) فاستدعى ذلك بكاءه، فأجاب دمعه تلك الدعوة، وأسعد على تلك النية، قبل أن يجيب ذلك بعض الركب (القوم الراكبون على الإبل) بالتأسف، وبعض الإبل بالحنين. وأشار إلى ناقته، والعرب يصفون مطيهم بالحنين إلى ديار الأحبة، كما يصفون أنفسهم. قال المتنبي:

فمرت بنخل وفي ركبها
عن العالمين وعني غنى
وأمست تخيرنا بالنقاب
ووادي المياه ووادي القرى

يريد أنه عندما وصل إلى مفترق الطرق لا يدري على أيها يسير فإن ناقته تخيره أو كأنها تسأله أيَّ طريق هو يريد.

الغيرة والانتقام. الجِمال من الحيوانات الغيورة على إناثها، فلو قدم في موسم الضِراب إلى القطيع جمل غريب فإن الفحل الموجود في القطيع، يقوم بمهاجمة ذلك الجمل الغريب، ولا يدعه يقترب من إناثه ويطرده؛ لذا ضربت به العرب المثل فقالوا «أغير من جمل».

كما أن لدى الجمل غريزة الانتقام، فلا ينسى من يؤذيه، ولذلك يظل حاقداً على المسيء له حتى ينتقم منه ولو بعد زمن طويل. لذا تقول العرب في بعض أمثالها «أحقد من جمل» وفي ذلك يقول الشاعر الشعبي إبراهيم بن جعيثن:

وعاشرها عدوّك ما يودّك
ترى قلبه عليك اله اشتعالي
ولو يعطيك لينٍ من لسانه
فهو مثل الحقود من الجمالِ

والجمل إذا أغضبه أحد وهو في الهياج، فإنه مهما طال الزمن، ومهما كان الجمل وديعاً، فإنه لا يؤمن جانبه؛ أورد الحبردي قصة ذكر فيها أن رجلاً ضرب جملاً هائجاً ليطرده عن نياق مجاسير لا يريده أن يضربها (يلقحها). وبعد مرور عامين نسي الرجل ما فعله بالجمل، فركب رديفاً مع صاحب الجمل، على ظهر ذلك الجمل نفسه. وعندما هَمَّ الرجل بالنزول عن ظهره التفت إليه الجمل أثناء نزوله وأطبق بفكه على قدمه وأخذ يجري به ليبرك عليه ويسحقه بزوره. ولكن صاحب الجمل لحق به وضربه بخنجر كان معه عدة ضربات، فلفظ (أفلت) الجمل قدم الرجل بعد أن طحنها، وبقي الرجل يعرج إلى اليوم بسبب تلك الحادثة المؤلمة (١٤٠٩: ٤٩-٥٢).

وذكر الجاحظ أيضاً أن البعير ربما كان يعلم أن سلاحه في نابيه وقوائمه، كذلك في قوة زوره عندما يبرك على شيء، وربما يعد الرّمح بالرجل والهبد باليدين أيضاً سلاحاً فتاكاً من أسلحة الإبل، يستغلها في الانتقام.

الحنين. تشتهر الإبل بغريزة الحنين إلى موطنها أو قطيعها أو حوارها، أو المكان الذي تربت فيه، أو شربت من مائه، أو أكلت من مرعاه. وتضرب العرب المثل بالإبل في حبّ الوطن والحنين إليه حتى قالوا «إن الإبل لتكون بالمكان الجدب الخسيس المرعى فتقيم فيه بحب الوطن». ويذكر مربو الإبل أن الجمل أو الناقة إذا فقدهما صاحبهما، فعليه البحث عنهما في الأماكن التي اعتادا أن يشربا أو يأكلا منها. وقد ذكر

أن أحد الجمال قد فر من صاحبه في قرية أبو حليفه بالكويت، إلى مكان يسمى الديمية في شمال الجزيرة العربية، يبعد مسافة ١٥٠ ميلاً عن قرية أبو حليفة، وهو نفس المكان الذي كان قد اشتراه منه قبل عدة أسابيع من فراره. وقد حدث أن جلبت ناقة وجمل من إحدى الدول الشقيقة بالطائرة إلى دولة الكويت، ووضعا في أحد مراكز تحسين الحيوان، وبعد فترة وجيزة، استطاعا أن يفرا من المركز بالكويت، وبعد اكتشاف هروبهما، استطاع فريق البحث أن يحدد مكانهما بالضبط، فذهب الفريق بالقرب من المطار الدولي، وفعلاً وجدهما هناك.

ويذكر كذلك أن البعير عند عدم تكيفه مع البيئة الجديدة أو المأوى يتركه متجهاً إلى المكان الذي يألفه؛ ومما يروى في ذلك أن ناصر بن موسى اللحيدان من أهل بلدة الوسيطا بمنطقة حائل كانت لديه ناقة فأرسلها مع راعي إبل انحدر بها شرقاً إلى جنوب شرق نجد في وادي التسرير، وبعد أن سمنت باعها الراعي وادعى أنها ماتت وأتى بجلد مثل جلدها ولكنّ الناقة هربت ممن اشتراها وعادت إلى صاحبها الأول بعد أن قطعت مسافة تُقدَّر بحوالي ٨٠٠ كم باتجاه الشمال الغربي حتى وقفت عند باب صاحبها.

وهناك قصة أخرى صاحبها محمد بن خرسان القحطاني الذي اشترى ناقة من البدع غرب مدينة تبوك، وتوجه عليها إلى تثليث ثم تركها عند أخيه وعاد إلى تبوك بالسيارة. وعندما وصل إلى تبوك بعد شهر من مغادرته تثليث وجد برقية من أخيه تفيد بفقد الناقة. وبعد ثلاثة أشهر أتى صاحبها الأول من البدع ليسأل عن محمد بن خرسان في تبوك ويخبره أن الناقة لديه في البدع وهذه قصة حقيقية. وقصة أخرى اشتُريت بكرتان عمر كل منهما ثلاث سنوات من شرورة ونقلتا بالسيارة إلى المريخ قرب تثليث والمسافة تقدر بنحو ٥٠٠ كم، وقد وضع غطاء على رأسيهما، ولكنهما عادتا إلى شرورة بعد سنة من بقائهما في المريخ. وهذه القصة حدثت في أواخر الثمانينات أو أوائل التسعينيات من القرن الماضي.

كما تمتاز الناقة بالذات بحرصها الشديد على مولودها، فهي ترعاه منذ ولادته إلى أن يصبح قادراً على الاعتماد على نفسه، ولو أن ناقة فقدت وليدها، فإنها لا تهدأ، بل تظل متنقلة من مكان إلى آخر للبحث عنه، ولا يهدأ لها بال حتى تجده.

وقصة خلوج ابن رومي ليست بعيدة عن الأذهان. وابن رومي هذا رجل من

أهل الإحساء كان تاجر إبل مشهوراً. كانت عنده ناقة نجيبة ثمينة، وذات يوم دخل معه ابن له صغير في الثالثة من عمره داخل حوش الإبل فرمحته الناقة وسقط على الأرض ميتاً. فغم الرجل وحزن أشد الحزن على ابنه ولم يهن عليه التفريط في الناقة لنجابتها وقيمتها عنده، فتركها حتى لقحت. ولما ولدت أخذ ولدها وذبحه أمام عينيها، فحنت وزنَّت وبركت وتمرغت وصارت تضرب بجسمها الأرض وحزنت حزناً شديداً، وبقيت مدة طويلة لا تأكل ولا تشرب حتى هزلت وكادت تموت. وبعد فترة تعزت ولقحت للمرة الثانية. ولما ولدت ذبح ولدها أمامها، ففعلت أكثر مما فعلت في المرة الأولى. ثم تعزت ولقحت للمرة الثالثة. وعندما ولدت أخذ ولدها وذبحه أمامها للمرة الثالثة. فلما رأت ذلك ما كان منها إلا أن وقفت على رجليها وحنت حنة عميقة بصوت مرتفع وضربت بنحرها الأرض وخرت ميتة. وعندما شقوا جوفها وجدوا قلبها قد انفجر وتمزق مزقاً. وعلى الرغم من المبالغة الظاهرة في هذه القصة من الناحية العلمية إلاّ أن قصة هذه الناقة اشتهرت شهرة عظيمة وأشار إلى حنتها الشعراء، فقال فهاد بن مسعر العاصمي:

ياونّةٍ ونّيتها يابن نصار
ما ونّته قبلي خلوج ابن رومي

وقال عبد الرحمن بن ناصر اللحيدان:

لى ياخلف لى ياذلول ابن رومي
أتعبتني وانا على الغالي انخاك
دنياك هذي يالتفاريق تومي
صيّور ما تمضي سوى هاكٍ أوهاك

كما تظهر هذه الصفة السلوكية المنحصرة في اهتمامها وحرصها الشديد على وليدها، عندما يراد حلبها، فهي لا يمكن حلبها مثل الأغنام والأبقار دون أن يكون وليدها هو البادئ بلمس حلمات ضرعها. أي أن يقوم الحوار في البداية بتحنينها، ثم يبعده الراعي أو يترك له خلفاً واحداً فقط عندما تبدأ الناقة بالإدرار. وقد تدر الناقة اللبن دون أن يقوم وليدها بتحنينها إذا كانت مسوحاً أو مرياً، لذلك يصطفي بعض الرعاة عدداً محدوداً من نوقه ليقوم بتعويدهن على إدرار اللبن دون الحاجة إلى وجود حوار. ويطلق على هذه النياق في بادية الجزيرة العربية مسوحْ أي أن الراعي بمسحه على الضرع يمكن للناقة أن تدر اللبن.

ويحدث في بعض الأحيان أن تلد الناقة ويموت حوارها بعد فترة، فيقوم

الراعي بسلخ جلد الحوار، وحشوه ببعض الأعشاب أو الحطب، أي أنه يقوم بتحنيط الجلد ثم حشوه، ويسمى (البـو) فيمرر على الناقة لتشمه، ويسهل بالتالي تحنينها وإدرار اللبن منها.

الخوف. البعير حيوان حذر، تسهل إخافته، فيكـفي الوثوب أمامه فجأة أو اقتراب سيارة منه أو حـتى سقوط متاع (أغراض) من على ظهره لإخافته، كما أن أية حركة غير عادية يقوم بها الراكب يمكن أن تخيف البعير. ولكن لوحظ أن الإبل لا تضطرب أثنـاء استخدامها في الحروب عنـد إطلاق النار من الـراكب عليها. وإذا ترك الجمل حراً سائباً (همل) لعدة أسابيع أصبـح من الصعوبة بمكان إعادة مسكه أو حتى الاقتراب منه.

ويذكر الحـتي مجموعة مـن طبائع الإبل منها أن الجمل يـفضل العيش مع جنسه، وهو حيوان وديع أنيس أليف لمن يؤالفه ويؤانسه ويرعاه، وهو جبان أشد الجبن، يخاف، على عظم حجمه، من أصغر الحيـوانات. وذهب بعضهم إلـى أنه ليس بين المخلوقـات الجبانة ما يماثل البعير، وإذا أراد البدو إزعاجه أو إخافته قعقعوا له بالشنان، أي بما يبس من أوعية الأسقية المصنوعة من الجلد، فيهرب من صوتها، ولذلك قال النابغة الذبياني:

كـأنـك مـن جـمال بـنـي أُقَـيْـشٍ
يـقـعـقع خـلـف رجـلـيـه بـشنِّ

وليسـت كل الإبل جبـانة فالجمـل عندما يهيج يصبح كالسيل العرم لا يقهره أشجع الشجعان ولا يقف أمامه إلا نوادر الرجال أو صاحـبه، كما سنفصـله في الحديث عن ضراب الإبل لاحقاً.

وأكثر ما تـخاف الناقة حين تـكون مطفلة، فتراها قلقة مضطربة لا سيما إذا انقطعت عن القطيع، أو شعرت بانفرادها وهي سارحة ترعى، وقد يحدث أحياناً أن يبدو للجمل، وهو يسرح مع قطيع، أمر يخيفه، كأن يباغته ذئب أو ضبع من وجار في واد، أو حيوان آخر مخيف، أو يطيـر سرب جراد من علـى الأرض بغتةً أمامه، فيَهرب الجمل مذعوراً، وقد يتبعه القطيع (١٩٩٠: ٩٨).

ووردت في الـتراث العربـي، شعره ونثره، إشارات واضحة، وجلية، عما يفعله البعير عند إخافته. ومن أمثال العرب قولهم «كل أزب نفور» والأزب من الأبل هو الذي يكثر شعر حاجبيه، ولا يكون الأزب إلا نفورا؛ لأن الريح تحرك شعر حاجبيه فيظن البعير أن أمامه شيئاً فينفر. وقالت العرب أيضاً في أمثالها «ضرب على جهازه» وأصل المثل أن الجمل إذا سقط عن ظهره القتب بأدواته ووقع بين قوائمه فإنه ينفر ويشرد عنه،

وهذا إذا كان البعير حديث الترويض. وقد ورد في الشعر العربي القديم إشارات تدل على خوف الجمل، منها قول علقمة بن عبدة يصف ناقة:

تلاحظ السوط شزرا وهي ضامزة
كما توجس طاوي الكشح موشوم

يقول: تنظر هذه الناقة شزراً (بمؤخرة العين) وهي ترى السوط، ولم ترغ ولم تجتر وهي عاضة على أنيابها كأنها ثور وحشي يقف متحفزا. وتقول البادية في هذا المعنى حين تضرب المثل على شدة النفور «فلان كأنه مطية جافل». أما طرفة بن العبد فيقول:

أحلتُ عليها بالقطيع فأجذمت
وقد خب آل الأمعز المتوقد

يقول الشاعر أقبلت على الناقة بالقطيع (السوط) فأجذمت (أسرعت) بالعدو خوفا، على الرغم من وجود شبه الآل (السراب) في الأمعز وهو المكان الذي يخالط ترابه حجارة أو حصى.

أما أبو الطيب المتنبي فيصف إبله بأنها إذا خافت تقهقرت إلى الخلف حتى تتقدمها الجياد فيقول:

إذا فزعت قدمتها الجياد
وبيض السيوف وسمر القنا

وأما أعشى باهلة فيقول:

قد تكظم البزل منه حين يفجؤها
حتى تقطع في أعناقها الجرر

أي: إنه يفاجئ الإبل فتخاف، لأنها تعرفه بكثرة عقره (ذبحه) إياها للضيوف فتتوقف عن الجرة (الاجترار) خوفا منه. والبزل جمع البازل من الإبل: وهي التي تبلغ التاسعة من عمرها.

أما الحطيئة فيذكر أن مطيته كادت أن تلقيه هو والرحل من على ظهرها خوفا، عندما سمعت صوت هدهد، حيث قال:

وكادت على الأطواء أطواء ضارج
تساقطني والرحل من صوت هدهد

ويصف الأخطل سلوك ناقته عندما يخيفها ويكرر ضربها بسوطه فيقول:

إذا عاقبتها الكف بالسوط راوحت
على الأين والتبغيل بالخطران
بذي خصل سبط العسيب كأنه
على الحاذ والأنساء غصن أهان
كأن مقذيها إذا ما تحدرا
على واضح من ليتها وشلان

يقول: إنه إذا ضربها مرة بعد مرة ازدادت في سيرها وعدوها حتى وهي تعبة من العدو وهي تعدو عدواً يشبه عدو البغال وتحرك ذنبها، وهذا الذنب طويل سبط ذو خصل وهو على ظاهر فخذها وأنسائها كقنو النخلة اليابس الذي لا تمر فيه.

أمَّا المخبل السعدي فيذكر أنه إذا رفع سوطه فإن ناقته تخاف من ذلك، وهذا الخوف ناتج عن قلبها (المروع) الموجود بين ضلوعها، قال:

وإذا رفعتُ السوط أفزعها
تحت الضلوع مروع شهم

وسيمرّ بك لاحقاً سلوك الناقة عندما يطاردها الفحل، ونذكر هنا بعض الأبيات التي تدل على خوف الناقة من الفحل. يقول ذو الرمة:

فيلوين بالأذناب خوفاً وطاعة
لأشوس نظار إلى كل راكب

يقول: هذه النوق تلوي أذنابها خوفا وطاعة إلى الأشوس وهو الفحل الذي ينظر لها بمؤخرة عينه. ويقول ذو الرمة:

إذا ما دعاها أوزغت بكراتها
كإيزاغ أثار المدى بالترائب

يقول إن النوق إذا دعاها الفحل خافت حتى إنها أثناء بولها تتبول على دفعات من شدة الخوف.

والخوف صفة في كل مخلوق يدرك الخطر، وهو في الإبل دليل على الأصالة. فجميع الصفات السابقة صفات مرغوبة في الإبل الأصايل.

أما الورّ من الإبل فهو عكس الحُر وهو ثقيل في السير لا يخيفه الضرب ولا تفزعه القرقعة بالشنان لبلاهته، وصبره قريب من صبر الحمار وهذا النوع غير مرغوب فيه إلا في السني وحمل الأحمال الثقيلة.

وهناك الكثير من القصائد العربية والشعبية التي تمجد صفة الخوف والحذر الذي تمتاز به الذلول، فتوصف بطيور الشياهين في سرعتها وحيويتها وحذرها وشجاعتها. وقد أسهم الشعراء الشعبيون في الصفات التي أشار إليها شعراء العربية بما تراه مفصلاً في موضعه، ونقتطف منه نماذج هنا للاستشهاد. وممن أشار إلى هذه الصفات خلف أبو زويد الشمري بقوله:

يجوز جفله بالخلاوي على الكيف
وعادك تحط المزهبة لين تشتال

وقال محسن بن علي التميمي:

بالقايله عد الفراعين فوقه
أسرع من الشيهان يوم استشاله

وقال فهيد بن دحيم:

راكبٍ حمرا من العوجا هميم
تجفل ليا شافت سمار ظلالها

وقال فهد بن فهيد الجلعود:

لى من ردن الثوب للمتن لمس
تفز تقل ملاطفه سعلواني

وقال محمد بن عبد الله العوني:

راكبٍ فوق حرٍّ يذعره ظله
مثل طيرٍ كفخ من كف قضّابه

وقال ساكر الخمشي العنزي:

بـالقـايـلـه لى جـا يـدادي قرينـه
شـرّاب خمـر وسامـع طقـة الـطار

بعض أسماء الإبل المأخوذة من طباعها وصفاتها. سمى العرب كل مسلك أو طبع أو صفة للإبل باسم خاص به، وقد عرف التراث العربي عدداً من هذه الأسماء، منها:

الأَسْوق: وهو البعير الذي يعوّد على السنـي، ويقال له: مـطواع. ويقولـون: أبلـمت الناقـة إبلاماً إذا كانـت لا ترغو (ترغي) من شدة الغِلمة، فهي مُبلم، وبها بلمة شديدة. والإبلام كذلك وضع (البلام) على فـم البعير أو النـاقة. والزغد هدير الفحل وهو الهدير الذي لا يكاد ينقطع.

والخلاء في الإبل كالحران في الدواب، يقال: خلأت الناقة أي بركت ولم تبرح. وفي الحـديث أن ناقـة النبـي صلى ﷺ خلأت يـوم الحديبـية، فـقالوا: خـلأت القـصواء، فـقال رسـول اللـه ﷺ: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبـسها حابس الفـيل. كما أنّ اللجان فـي الإبل كالحران في الخيل، وندَّ البعير إذا شرد.

والبعير الـدجون ما عود على أكل بعض الأطـعمة مثل الحـبوب والتمر، والناقة المذعان المذللة.

والقعـدة من الإبل ما اتخذه الـراعي للركوب وحمل الزاد والمتاع. ومنها الدّلُوه الإبل التي لا تكاد تحن إلى إلف ولا ولد.

أما إذا حنت النـاقة فترزم والرزمة ضرب من حنينها لولدها. والظئر الناقة العـاطفة على غير ولدها.

وإذا رفع الفحـل ذنبه مرة بعد مرة وضرب به حاديه، قالوا: خطر الفحل والاسم الخطران.

ويقولون: شالت الناقة بذنبها وأشالته واستشالته، إذا رفعته، والشائلة من الإبل التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها، والجمع شول، وقيل: الشول من الإبل التي نقصت ألبانها، وذلك إذا فصل ولدها عند طلوع سهيل فلا تزال شولاً حتى يرسل فيها الفحل. والمصعب الفحل الذي يودع للفِحْلَة، لا يركب ولا يعمل عليه. كما يطلق على الهجين الذي لم يعسف بعد. والقريع الفحل الذي يأخذ بذراع الناقة حتى ينيخها.

وقالوا عن الحمل: نـاقة عشراء أي مضى على لقاحها عشرة أشهر أو ثمانية، والعشراء من الإبل كالنفساء من النساء، والعشار اسم يقع على النوق حتى ينتج بعضها، وبعضها ينتظر نتاجها.

والمخاض الـتي دنا وقـت ولادتهـا وأخذها الطلق، والمخـاض اللواقح من النوق وقيل: التي أولادها في بطونها، وقيل: المخاض العـشار من النوق التي أتى عليها من حملها عشرة أشهر.